الفوز العظيم

تاج الدين نوفل



دار القلم للتراث

القاهرة ١٦ ش خاطر التعاون - فيصل - الهرم

ت ٣٨٣٥١٤٨ / ٠٢ فاكس ٣٨٢٣٠٢١ / ٠٢

المحلة الكبرى - مبنى ٢٣ يوليو

خلف مجلس المدينة ت ٢٢٣٧٥٠٠ / ٠٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الفوز العظيم

يقول تعالى : ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[1]

ويقول جل وعلا : ﴿ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدتَّهُم وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَن تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[2]

ويقول جل شأنه : ﴿ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[3]

صدق الله العظيم

(١) التوبة آية (٧٢) .
(٢) غافر آية (٨ ، ٩) .
(٣) التغابن آية (٩) .



إهداء

إلى : الكاظمين الغيظ ..

والعافين عن الناس ..

والله يحب المحسنين ..

إلى : الآمرين بالمعروف ..

والناهين عن المنكر ..

والمؤمنين بالله رب العالمين ..

إلى : المفشين السلام ..

والملينين الكلام ..

والمطعمين الطعام ..

والواصلين الأرحام ..

والقائمين بالليل والناس نيام ..

إلى : الفائزين بجنات النعيم ..

في الفردوس الأعلى في عليين ..

في دار السلام .. في النعيم المقيم ..

أقدم لهم كتابي :

الفوز العظيم

تاج الدين نوفل

الفوز العظيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين حمدًا يليق بكماله وجماله وجلاله . . وأصلى وأسلم على محمد وآله . . أما بعد :

فيا أيها القارئ الكريم : هذا الكتاب : رسالتى إليك معطرة بأريج المصطفى (ﷺ) كتبتها إليك بقلبى ووجدانى وأرسلتها إليك بعلم الوصول . . عسى أن تحوز لديك القبول . . فهى حصاد سلسلة أحاديثى إليك عبر الأثير . . وفى الندوات والمحاضرات التى التقيت معك فيها . . فى كل مكان جمعنا الله فيه من أرضه على الإيمان والمحبة . . والتى أقسمت علىّ فيها أن أجمعها لك فى كتاب . . حتى لا تضيع هباء ولا تذهب سدى . . ويظل الخير فى هذه الأمة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها . . حتى يصدق عليها قول المصطفى(ﷺ) : « الخير فىّ وفى أمتى إلى يوم القيامة » .

ويصدق فيها قول الحق جل وعلا : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١).

وهذه الرسالة محملة : بالعفو الكريم ، والصفح الجميل ، والتسابيح والتراويح ، والتوحيد والإيمان ، والخوف من الله ، وحدود الله ، وغفران الذنوب ، وصلاة الليل ، وجنات عدن ، والفوز العظيم .

إلى آخر تلك النعم التى من الله علينا بها . . وخص بها تلك الأمة العظيمة . . وجعلها خير الأمم على الإطلاق .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

من هنا . . فلا يسعنى إلا أن أقدمه إليك بكل مافيه . . ومايحتويه . . فلعله يكون نبراسًا يضيء للسالكين . . طريق الهدى واليقين . . ويأخذ بأيدينا جميعًا إلى رضوان الله رب العالمين . . فى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين .

أما بعد :

فها أنذا أتركك بين صفحات هذا الكتاب . . وفى رحاب تلك الأبواب . . فقلّب أوراقه وآنس رواقه . . فقد تجد شيئًا يستهويك . . أو تجد شيئًا تستهويه . . فينفعك مافيه . . بما فيه فيباشر قلبك . . ويلامس روحك . . ويخالط نفسك . . ويشعشع جسمك . . ويُطَيِّبُ رسمك . . فلا تشقى بعد ذلك أبدًا . .

وماهى إلا نفحة من نفحات الله تعالى . . يتجلى الله بها علينا . . فى ساعة من صفاء من ليل أو نهار . . فى أرض أو سماء . . فتأخذ بأيدينا . . إلى مالا عين رأت . . ولا أذن سمعت . . ولاخطر على قلب بشر . . ﴿وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (١) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، ، ،

تاج الدين نوفل

---

(١) سورة التوبة - آية ٧٢ .

العفو

قال تعالى :

﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[1] .

صدق الله العظيم

قال الهادى البشير (ﷺ) :

« مازاد الله عبدًا بعفوٍ إلا عزًا »[2] .

---

(١) سورة النور - آية ٢٢ .

(٢) رواه مسلم عن أبى هريرة (رضي الله عنه) .

العفو والصفح الجميل

يقول تعالى :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢) .

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٣) .

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٤) .

﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (٥) .

﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٦) .

ثلاث يقسم عليها النبى (ﷺ) : « ما نقص مال من صدقة ، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً ، وما تواضع أحد لله إلا رفعه » .

ويقول (ﷺ) : « من اعتذر إليه فلم يقبل ، لايرد عليَّ الحوض يوم القيامة » .

* * *

عز المغفرة

يامن تريد الآخـــرة	وتريد عـــز المغـــفـــرة
وتريد جنات العـــلا	بين الرياض الناضـــرة
العز فى الصفح الجميل	وفى قـــبـــول المعـــذرة
بالصبـر منك على الأذى	والعـــفـــو عند المقـــدرة
تجنى الجـــواهر كلهـــا	فى كل يوم جـــوهـــرة
بســـعـــادة لك ها هنا	وســـعـــادة فى الآخـــرة (*)

---

(١) ١٣٤ آل عمران .
(٢) ١٩٩ الأعراف .
(٣) ٣٤ - ٣٥ فصلت .
(٤) ٤٣ الشورى .
(٥) ٨٥ الحجر .
(٦) ٢٢ النور .
(*) من شعر المؤلف .

دعوة للصفح

هذه دعوة للعفو والصفح الجميل . . والدين والخلق النبيل . . والحلم والأدب الأصيل . . ومن أجمل ماقيل فى الصفح الجميل :

كونوا كالشجر . . يرمى بالحجر . . فيهمى بالثمر . .

فإن الشجر لايرد الحجر بالحجر . . وإنما يرد الحجر بالثمر . .

هذا

ولقد كان عبدالله بن مسعود رجلاً كريمًا . . يعفو عمن أساء إليه . . ويحسن إلى من آذاه . . ويدعو لمن دعا عليه . .

وذات يوم . . كان يمشى فى السوق مع بعض أصحابه . . فسرقت حافظة نقوده . . فقال له أصحابه :

ياعبد الله . . يابن مسعود . . ياصاحب رسول الله (ﷺ) . . ادع على السارق : فقال لهم : لا . . أنا صاحب المال . . وأنا أحق بالدعاء له أو عليه . . أنا أدعو وأمّنوا . . ورفع يديه . . وقال :

« اللهم إن كان سارق مالى هذا فى حاجة إليه . . فاللهم بارك له فيه . . واللهم إن كان سارق مالى هذا ليس فى حاجة إليه . . فاللهم اجعلها آخر معصية له فى حياته » .

وذات يوم خرج أبو هريرة إلى السوق مع بعض أصحابه فنادى عليه رجل وقال : ياأبا هريرة . . قال : نعم . . قال : ياسارق الطعام . . ياسارق الطعام . . ياسارق الطعام . .

فرفع أبو هريرة يديه . . وقال :

« اللهم . . إن كان صادقًا فاغفر لى . . واللهم إن كان كاذبًا فاغفر له » .

انظر : إلى الأدب النبوى . . وكيف أدبهم النبى (ﷺ) . . فأحسن تأديبهم كما أدبه ربه من قبل فأحسن تأديبه . .

هذا ويروى أن عمر بن العزيز (رضي الله عنه) كان يتوضأ ذات يوم . . وكان يصب عليه الماء خادمه المطيع . . فسقط الإبريق من يد الخادم سهواً . . فتناثر الماء على ثياب أمير المؤمنين . . فهمَّ به سوءاً . . ولما رفع يده ليبطش به . . استوقفه الخادم قائلاً :

مهلاً يا أمير المؤمنين مهلاً . .

أما أخطأت يومًا فى حق مولاك الأكبر . . ؟!

أما أخطأت يومًا فى حق الله . . ؟!

قال عمر : بلى .

قال له : وهل عجل لك العقوبة كما تريد أن تعجلها علىَّ ؟

قال عمر : لا . . لا . .

عفوت عنك . . أنت حر طليق لوجه الله تعالى . .

قال له : أطلقتنى من خدمتك ، فمن يطلقنى من حبك ، إنى أحبك ياأمير المؤمنين ، ولا أطيق فراقك لحظة واحدة .

إننى كلما ذهبت لقضاء حاجتى ، تحرقت شوقًا إليك ، فكيف أتركك ولا ألقاك؟ أرجو أن تجعلنى فى خدمتك دائمًا .

أطلقتنى من خدمتك ... وربطتنى بمحبتك
فإذا تركتك من هنا ... ألقيتنى فى قبضتك

وذات يوم كان يصب عليه الماء آخر . . فسقط الإبريق من يد الخادم سهواً فحدث ماحدث من قبل . فتساقط الماء على ثياب أمير المؤمنين ، فهمَّ به سوءًا ، ولما رفع يده ليبطش به ، استوقفه الخادم قائلاً :

مهلاً ياأمير المؤمنين مهلاً . .

أما قرأت قوله تعالى :

والكاظمين الغيظ ؟! . .

قال : كظمت غيظى .

قال : والعافين عن الناس ؟! . .

قال : عفوت عنك .

قال : والله يحب المحسنين ؟!

قال : أنت حر طليق لوجه الله .

قال :

أطلقتنى من خدمتك ... وربطتنى بمحبتك
فإذا تركتك من هنا ... ألقيتنى فى قبضتك

* * *

إنى أحبك يا أمير ... وأكاد من حبى أطير
ولدى أجنحة أطير بها ... ولكن لا أطير
فأنا أسير للأمير ... فارحم الطير الأسير(*)

* * *

العفو

إنه العفو الذى يولد المحبة ، والصفح الذى يولد الجمال ، ويزرع أشجار الحب فى قلوب الناس ، فتثمر يانعة خضراء ، ينتشر أريجها فى شتى الأرجاء ، ويفوح شذاها فى الأرض وفى السماء ، فتطهر النفوس ، وتذكى الجوارح ، وترفق القلوب ، وتحسن النوايا ، وترفع الخطايا ، وتكشف البلايا ، وتؤلف البرايا .

إن كنت ترضى بالقليل ... وتخاف من رب جليل
وتريد جنات عذارى ... عند نهر السلسبيل
حفت بأعناب عذاب ... قد أحيطت بالنخيل
فلتعف عن هذا وذاك ... واصفح الصفح الجميل(*)

(*) من شعر المؤلف .

(*) من شعر المؤلف .

الأستاذ والتلاميذ

إذا كان هؤلاء هم التلاميذ . . فما بالنا بالأستاذ المعلم . . (ﷺ) . . ذات يوم كان على المصطفى (ﷺ) دين . . ولم يحن بعد موعده . . فجاءه صاحب الدين يطالبه بحقه . . ويقول صائحًا فى وجهه (ﷺ) :

إنكم يابنى هاشم قوم مطل . . تماطلون فى دفع الدين . .

وظل يكيل للنبى (ﷺ) كيلاً فى غير أدب . . فقام إليه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وكان لايطيق نسمة الهواء تمر على النبى (ﷺ) فقد كان يغار عليه من الهواء . . فجرد سيفه من غمده . . وقال :

يا رسول الله مرنى بقتل الرجل . .

فغضب رسول الله (ﷺ) غضبًا شديدًا وقال : لا ياعمر . . قد كنت أنا والرجل أحوج منك إلى غير هذا . . أن تأمرنى بحسن الأداء . . وتأمره بحسن الطلب .

أى : الأولى بك ياعمر أن تدعونى أن أؤدى حق الرجل . . وأن تدعو الرجل أن يطلب حقه برفق .

ولو كان محمد (ﷺ) رجلاً من رجال العصر . . أو زعيمًا من زعماء العالم . . أو سلطانًا من سلاطين الدنيا . . أو جبارًا من الجبابرة . . فقال :

قم ياعمر وأطح برقبته . . حتى يعلم أن وراءه رجال . .

قم ياعمر . . واقتله . . حتى يكون عبرة لمن خلفه . .

قم ياعمر . . وأدبه . . حتى يتعلم كيف يوقر أسياده . .

ولكنه الأدب النبوى . . الذى يعلم أصحابه الحق ولو على أنفسهم . . أنا والرجل أحوج منك إلى غير هذا . . أن تأمرنى بحسن الأداء . . وأن تأمره بحسن الطلب . . كلمات من ذهب . . من فم نبى الأدب . .

انظر إلى الأدب النبوى فى أسمى مراتبه . . الكمال الخلقى فى أسمى معانيه . . أن تأمرنى بحسن الأداء . . وأن تأمره بحسن الطلب . .

كلمة . . أثقل من موازين الدنيا . . وأنفس من كنوز الأرض .

كلمة حق من جوهر . . أحرفها من عنبر . . تسابقت عليها الملائكة وزفتها إلى رب العرش العظيم فى حرز من ياقوت . .

العفو والصفح في عزة وكرامة

يقول تعالى :

﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١) .

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (٢) .

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ * وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ (٣) .

﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾ (٤) .

﴿ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴾ (٥) .

﴿ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (٦) .

ثلاث يقسم عليها النبى (ﷺ) :

« ما نقص مال من صدقة » .

« مازاد الله عبداً بعفو إلا عزاً » .

« وماتواضع أحد لله إلا رفعه » (*) .

ويقول (ﷺ) :

« من اعتذر إليه فلم يقبل ، لايرد عليّ الحوض يوم القيامة » (*) .

* * *

---

(١) آية ١٣٤ آل عمران .

(٢) آية ١٩٩ الأعراف .

(٣) آية ٣٤ - ٣٥ فصلت .

(٤) آية ٤٣ الشورى .

(٥) آية ٨٥ الحجر .

(٦) آية ٢٢ النور .

(*) رواه مسلم والترمذى .

(*) رواه الحاكم وغيره .

دعوة للعفو

هذه دعوة للعفو ، والصفح الجميل . العفو الذى لايثمر الاحتقار ، والصفح الذى لايثمر الازدراء ، فعلى المسلم أن يصفح عن أخيه ، ويعفو عنه . . عفواً لايكون سببًا فى ازدراء الناس له ، أو تهكمهم عليه ، أو استخفافهم به . . وإلا فلابد أن يكون له موقف يعيد إليه كرامته . . ويحفظ له هيبته .

وذات يوم كان الرسول (ﷺ) نائمًا فى ظل شجرة . . فجاء أعرابى كافر . . وشهر سيفه فى وجه النبى (ﷺ) وقال : يامحمد من يمنعك منى ؟ فقال النبى (ﷺ) : الله . . فسقط السيف من يد الأعرابى . . فأمسكه النبى (ﷺ) وقال للأعرابى : من يمنعك منى ؟ قال الأعرابى : عفوك يارسول الله . . فقال النبى (ﷺ) : عفوت عنك . . فقال الأعرابى : أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله .

وذات يوم جاء رجل إلى النبى (ﷺ) وكان رجلاً مصارعًا قويًا عنيدًا . . وقال يامحمد لن أؤمن لك حتى تصارعنى . . فقال له النبى (ﷺ) : لم أبعث لهذا . . قال : إن كنت صادقًا فصارعنى . . فإن صرعتنى آمنت بك وكنت نبيًا حقًا . . وإن صرعتك كنت مدعيًا ولست نبيًا . . وكان هذا الرجل . . كما يقولون . . بطل الجزيرة العربية . . له قوة عشرة من الفرسان الشجعان . . يقول راوى الحديث : فصارعه رسول الله (ﷺ) وصرعه . . فسقط الرجل على الأرض فزعًا . . وقال : يامحمد لقد أخذتنى على غرة . . أى وأنا على غير استعداد وأهبة . . يا محمد أعد المصارعة مرة أخرى . . فعاوده الرسول (ﷺ) وصارعه وصرعه . . فسقط الرجل على الأرض مندهشًا . . وقام مذهولاً . . يقول : أشهد أن لا إله إلا الله . . وأن محمدًا رسول الله .

هذا . . ويروى أن كافرًا شتم النبى (ﷺ) وآذاه ، فقال الرسول (ﷺ) : اقتلوه . .

فقال الرجل : معذرة يامحمد ، لن أعود إليها . .

فقال الرسول (ﷺ) : عفونا عنك . .

فعاد الرجل وسب النبى (ﷺ) . . تهكمًا عليه واستخفافًا به .

فقال النبى (ﷺ) : اقتلوه

فقال الرجل : معذرة يامحمد . لن أعود إليها ثانية .

فقال النبى (ﷺ) : اقتلوه ، فلن يلدغ المؤمن من جحر مرتين ، والله لاأتركك تمشى فى شعاب مكة ، وتقول : ضحكت من محمد مرتين .

* * *

أثقل من جبل أحد

وذات يوم تسلق عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) شجرة ، وكان عبد الله بن مسعود رجلاً ضعيفًا نحيفًا ، فشاهد الصحابة (رضوان الله عليهم) ساقه ، وكانت رقيقة نحيلة . فضحكوا منها ، فقال لهم الرسول (ﷺ) . . غاضبًا : أتضحكون من قدم عبد الله بن مسعود ؟! . . والله . . لقدمه فى ميزان الله يوم القيامة . . أثقل من جبل أحد .

ومن يومها والصحابة (رضوان الله عليهم) يعرفون قدر عبد الله بن مسعود ، فلا يراه أحدهم إلا وتملأ قلبه الهيبة والجلال ، وكيف لا ؟ وهو أول من جهر بالقرآن بمكة . . وحفظ القرآن والسنة . . والسابق إلى الجنة . . وصدق الله العظيم . . إذ يقول :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (1) .

فلرب أشعث أغبر ، لو أقسم على الله لأبره . .

فلا تسخر من أحد . .

و « لاتظهر الشماتة بأخيك ، فيعافيه الله ويبتليك ، ويرفعه عليك ويزدريك . . ويغنيه عنك ولايغنيك ، ويحوجك إليه ولايعطيك ، وكما شمت فيه يشمته فيك . . » .

(1) سورة الحجرات آية 11 .

هذه تذكرة للعفو ، ودعوة للصفح الجميل ، العفو الذى لايثمر الازدراء ، والصفح الذى لايثمر الاحتقار ، فاعف واصفح عن أخيك عفوًا ، لايكون سببًا فى ازدراء الناس لك ، أو تهكمهم عليك ، أو استخفافهم بك ، وإلا فقف معهم موقف الإمام الشافعى إذ يقول :

زن من وزنت بما استزنت ... وما وزنت به فزنه
من جاء إليك فرح إليه ... ومن جفاك فصد عنه
من ظن أنك دونه ... فاطرح هواه إذن وهنه
والجأ إلى ملك الملوك ... فكل ما يأتيك منه

* * *

ذكر الله تعالى

قال تعالى :

﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴾[1].

صدق الله العظيم

(١) سورة الإسراء - آية ٤٤ .

تسابيح وتراويح

يقول تعالى :

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ (١) .

ويقول عز وجل : ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾ (٢) .

ويقول الهادى البشير (ﷺ) : « مثل الذى يذكر ربه والذى لايذكره كمثل الحى والميت . . فذاكر الله بين الغافلين كالحى بين الميتين » .

فبذكر الله تغفر الذنوب . . وتستر العيوب . . وتكشف الكروب . . وتطمئن القلوب . . ويتوب الله على من يتوب . .

فالكون يسبح . . والكل يسبح . .

السموات والأرض ، والجبال ، والبحار ، والأنهار ، والأشجار ، والشمس والقمر ، والكواكب والنجوم ، والأفلاك والبشر ، والحجر والمدر ، والنبات والجماد ، والملكوت ، والمخلوقات جميعًا . . تسبح فى منظومة واحدة رغما عنها . . حتى الكافر يسبح رغم أنفه تسبيح جبر لا اختيار . . فالتسبيح نوعان : تسبيح إجبار . . وتسبيح اختيار . . فتسبيح الإجبار . . تسبيح تشترك فيه الكائنات جميعًا رغمًا عنها . . وتسبيح الاختيار . . هو الذى يثاب عليه فاعله . . لأنه بمحض إرادته . . وتسبيح الإجبار . . هو تسبيح يجبر عليه فاعله . . فهو مجبور عليه . . تفعله جوارحه وأعضاؤه وحواسه دون أن يدرى كيفيته ولا نوعيته ولايراه ولايسمعه . . يستوى فيه المؤمن والكافر . . والطائع والعاصى . . ولا يثاب عليه لأنه مفطور عليه . .

---

(١) سورة النور آية ٤١ .

(٢) سورة الإسراء آية ٤٤ .

وتسبيح الاختيار . . هو تسبيح بالقلب واللسان . . يفعله صاحبه باختياره . . دون إجبار لأحد عليه . . لهذا فهو يثاب عليه فى الدنيا والآخرة . . ويعاقب على تركه فى الدنيا والآخرة .

فما من شيء فى الوجود . . إلا ناطق بعظمة الله تعالى شاهد بوحدانيته جل وعلا . . وإنه لمشهد كونى رائع فريد حين يتصور القلب كل حصاة وكل حجر . . كل حبة وكل ورقة . . كل زهرة وكل ثمرة . . كل نبتة وكل شجرة . . كل زاحفة وحشرة . . كل إنسان وحيوان . . كل دابة على الأرض . . كل سابحة فى الماء والهواء . . ومعها سكان السماء . . كلها تسبح الله . . وتتوجه إليه فى علاه . . وحين تشف الروح وتصفو . . تدرك من أسرار هذا الوجود . . مالا يدركه الغافلون :

السموات تسبح الله فى زرقتها . . والحقول فى خضرتها . . والبساتين فى نضرتها . . والأشجار فى حفيفها . . والمياه فى خريرها . . والطيور فى تغريدها . . والشمس فى شروقها وفى غروبها . . والسحب فى أمطارها . . والكل شاهد بالوحدانية لله . .

* * *

إنه الواحد

ألا إننا كلنا بائد	وأى بنى آدم خالد
وبدءهمو كان من ربهم	وكل إلى ربه عائد
فياعجبا كيف يعصى الإله	أم كيف يجحده الجاحد
ولله فى كل تحريكة	وفى كل تسكينة شاهد
وفى كل شيء له آية	تدل على أنه الواحد

هذا . . ويروى :

أن موسى عليه السلام خرج ذات يوم . . إلى شاطئ نهر . . يتأمل فى ملكوت السماء . . وتلك سياحة الأنبياء . . تلك السياحة التى تربى عليها الأنبياء والرسل . .

والتى من شأنها فتح الآفاق الرحبة . . للتفكر والتدبر فى ملكوت الله . . مما يفتح الأبواب المغلقة . . ويكشف الأسرار الكامنة . . فتشرق الأنوار الساكنة . . بقدرته سبحانه وتعالى . .

وفى أثناء جولته (عليه السلام) . . أوحى الله إليه :

ياموسى . . ادخل إلى هذا الوادى المهجور . . وتأمل هذا العصفور . . واسمع إلى صوته المأثور . . فقد تركته أمه صغيرًا بلا زاد ولا مأوى . . فدخل موسى (عليه السلام) . . وتأمل . . فوجد عجبًا . .

وجد أن الله تعالى قد أنبت له شجرة خضراء . . وأجرى له عين ماء . .

فقال موسى (عليه السلام) : سبحان الله . .

فقال الله تعالى : ياموسى أنت لاتدرى أى ذكر يذكرنى به هذا العصفور ! !

فقال موسى (عليه السلام) : أو يذكرك هذا العصفور يارب ؟!

فقال الله تعالى : نعم يذكرنى .

فقال موسى (عليه السلام) : فبأى ذكر يذكرك هذا العصفور يارب ؟

قال الله تعالى : هو يقول كل يوم وليلة :

سبحان من برانى . . من نوره وهدانى . .
سبحان من أطعمنى . . من فضله وسقانى . .
سبحان من يرانى . . ولايخفى عليه مكانى . .
سبحان من يرزقنى . . ولا ينسانى . .

وكيف لايراه : ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ (1).

وكيف يخفى عليه : ﴿وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (2).

وكيف لايرزقه : ﴿وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا﴾ (3).

---

(1) سورة العلق آية ١٤ . (2) سورة إبراهيم آية ٣٨ .

(3) سورة هود آية ٦ .

وكيف ينساه : ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴾ (١).

هذا طائر من الطيور . . فى واد مهجور . . وفى أرض بور . . تركته أمه صغيراً بلا زاد ولا مأوى . . والله يرزقه ولا ينساه . . وهو يذكر الله ولا ينساه . .

فما بالنا بمن يمشى عملاقًا . . والله يرزقه ولا ينساه . . وهو غافل عن ذكر الله وعن الصلاة . . وبرغم عطاء الله الممدود . . وخيراته التى ليس لها حدود . . فإنه يغفل عن ذكر ربه . . الذى هو السعادة فى الدارين . . ألا بذكر الله تطمئن القلوب . . فإن سعادة الدنيا باطمئنان القلوب . . وسعادة الآخرة بلقاء المحبوب . .

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (٢) .

وفى الحديث القدسى :

« أنا جليس من ذكرنى وتحركت بى شفتاه » .

« عبدى . . اذكرنى ساعتين : أكفك مابينهما . . ساعة قبل الشروق . . وساعة قبل الغروب . . أكفك مابين الساعتين » .

« يابن آدم . . إن ذكرتنى شكرتنى . . وإن نسيتنى كفرتنى » .

هذا . .

وقد ورد أن النبى (ﷺ) : سأل ربه قائلاً : « يارب لقد أعطيت نوحًا فكان صفيك . . وأعطيت إبراهيم فكان خليلك . . وأعطيت موسى فكان كليمك . . وأعطيت عيسى فكان نجيك . . فماذا أعطيتنى يارب ؟!

فقال الله تعالى « يامحمد . . لقد أعطيتك ثلاثًا لم أعطها أحدًا قبلك . .

أولها : إن كان نوح صفيي . . وإبراهيم خليلى . . وموسى كليمى . . وعيسى نجيي . . فأنت حبيبى . .

ثانيها : أن أستر على العصاة من أمتك . .

ثالثها : أن أغفر لمن يتوب مالم يغرغر . .

---

(١) سورة مريم آية ٦٤ .　　(٢) سورة الكهف آية ١١٠ .

ولولا أن الحبيب يحب معاتبة حبيبه . . لأدخلتهم الجنة بغير حساب » .

اللهم أدخلنا الجنة بلا سابقة عذاب . . ولا مناقشة حساب . .

أتراب تراب لتراب ... ما بين ذهاب وإياب

قل من يخش اليوم حسابى ... يأمن عاقبتى وعذابى

فالنار لمن يعبد غيرى ... والجنة جنة أحبابى

إن تطلبنى تأمل عفوى ... لن أغلق فى وجهك بابى

أفتح لك أبواب جنانى ... فادخل من أى الأبواب[1]

* * *

لا إله إلا الله

قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [2].

ويقول الهادى البشير (ﷺ) : « من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله حرم الله عليه النار » [3] .

ويقول الشاعر الحكيم :

ألا إننا كلنا بائد ... وأى بنى آدم خالدُ

وبدءهمو كان من ربهم ... وكل إلى ربه عائدُ

فيا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحدُ

ولله فى كل تحريكة ... وفى كل تسكينة شاهدُ

وفى كل شيء له آية ... تدل على أنه الواحدُ

* * *

(١) من شعر المؤلف .

(٢) سورة آل عمران آية ١٨ .

(٣) رواه مسلم والترمذى .

أمانة على عرفات

ويروى أن رجلاً وقف على جبل عرفات يلبى : لبيك اللهم لبيك . . لبيك لاشريك لك لبيك . . إن الحمد والنعمة لك والملك . . لاشريك لك . . ثم أخذ الرجل سبع حصيات وقال لها : أيتها الحصيات : إنى أشهدك أنه لا إله إلا الله وحده لاشريك له . فكونى شاهدة لى يوم القيامة . .

ومرت الأيام . . ومات الرجل . . وشاءت الأقدار أن تحمله الملائكة إلى النار لسوء عمله . . وكلما أتت به الملائكة إلى باب من أبواب النار . . وجدت جبلاً على كل باب . . يحول بين الرجل ودخول النار . .

فهرعت الملائكة إلى ربها . . قائلة :

يارب إننا لا نستطيع أن نلقى به فى النار وقد أغلقت الجبال أبواب النار السبعة . .

فقال الله للملائكة :

لقد أشهد سبع حصيات فشهدت له . .

أتشهد له الحصيات ولا أشهد له . . ؟؟

نعم . .

أتشهد له الحصيات ولا يشهد له رب الأرض والسموات . . ؟؟

لقد تقبل الله شهادة الحصيات السبع ، وتقبلها بيمينه . . وجعل كل واحدة منها جبلاً يحول بين الرجل والنار . .

لقد كبرت الحصيات السبع وأصبحت جبالاً شاهقة ، أغلقت أبواب النار دونه ، وكيف لا وهى تحمل ما تنوء بحمله السموات والأرض . . تحمل أمانة حمَّلها إياها عبد من عباد الله . . فى بقعة من بقاع الله . .

حملت أمانة «لا إله إلا الله» وأدت الأمانة فى وقتها فكانت حجابًا من النار . . لعبد طلبته النار فلم تجده . . فطوبى لعبد طلبته الجنة فوجدته .

* * *

لا إله إلا الله
أثقل من السموات والأرض

وكثيراً ما أتغنى بهذا النشيد :

لا إلـــــــه إلا الله حـــصنى
لا إلـــــــه إلا الله أمــنـــى
لا إلـــــــه إلا الله كـنــزى
لا إلـــــــه إلا الله فـــوزى
لا إلـــــــه إلا الله حــــرزى
لا إلـــــــه إلا الله عـــــزى(1)

* * *

رجحت كفة لا إله إلا الله

وقد ورد أن موسى (عليه السلام) قال : « يارب علمنى ذكراً أذكرك به وحدى . . دون سائر الناس قال الله تعالى : يا موسى . . قل لا إله إلا الله . .

قال موسى : يارب كل الناس تقولها . .

فقال الله : يا موسى . . أما علمت أنه لو وضعت لا إله إلا الله فى كفة ، والسموات والأرض فى كفه . . لرجحت كفة لا إله إلا الله . . »(2).

لا إله إلا الله

لا إلـــــــه إلا الله	كل شـــىء فـى الحيـاة
والسـبـيـل للنجـاة	يــوم لاينفـع جـــاه
فــيــه إلا مـــن أتـــاه	حـامــلاً قلبـًا هــداه(3)

الله فى تـلك الحيـــاة

(1) من شعر المؤلف . (2) رواه الحاكم وغيره . (3) من شعر المؤلف .

وقد ورد عن أبى ذر (رضي الله عنه) أن النبى (ﷺ) قال له : « يا أبا ذر : من قال لا إله إلا الله دخل الجنة . . فقال أبو ذر : وإن زنى وإن سرق . ؟

قال (ﷺ) : وإن زنى وإن سرق . .

قال أبو ذر : وإن زنى وإن سرق . ؟

قال (ﷺ) : وإن زنى وإن سرق . .

قال أبو ذر : وإن زنى وإن سرق . ؟

قال (ﷺ) : وإن زنى وإن سرق . . رغم أنف أبى ذر »[١] .

هذا . . وقد جاء فى الأثر : « أسعد الناس بشفاعتى يوم القيامة من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه »[٢] .

« مفاتيح الجنة شهادة أن لا إله إلا الله »[٣] .

« ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة يوم القيامة »[٤] .

* * *

(١) رواه أحمد وغيره .

(٢) رواه البخارى .

(٣) رواه أحمد والبزار .

(٤) رواه البيهقى .

الحق والباطل

قال تعالى :

﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾[1] .

صدق الله العظيم

(١) سورة الرعد - آية ١٧ .

لن يملأ عين ابن آدم
إلا التراب

يقول تعالى : ﴿ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ ﴾ (1) .

ويقول الهادى البشير (ﷺ) : « لو أن لابن آدم واديًا من ذهب لتمنى الثانى ولو أعطاه الله الثانى لتمنى الثالث ولن يملأ عين ابن آدم إلا التراب » .

هذا مثال للحق والباطل . . على مر العصور والأيام . . وهو مثال صالح لكل زمان ومكان . . فالحق يبقى والباطل يزول . . والهدى يبقى والضلال يزول . . والله يبقى وما سواه يزول . . والتوحيد هو النور . . والإشراك هو الزور والظلام . . ﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴾ (2) .

فالحق أبلج والباطل لجلج . . ودولة الباطل ساعة . . ودولة الحق إلى قيام الساعة . . فقد يعلو الباطل وقد يربو . . وقد يزيد الحرام وقد ينمو . . ولكنه لايلبث أن يزول وأن ينتهى . . فالحرام لايدوم وإن دام لاينفع . .

جمع الحرام على الحلال ليكثره * دخل الحرام على الحلال فبعثره

فقد يعلو الباطل وقد يطفو . . ولكن ما يلبث الحق أن يأتى بجنوده . . وينشر نوره على الوجود . . فتشرق الأرض بنور ربها . . ويعم النور أرجاء المعمورة . . ويعلو الحق على الباطل . . والخير على الشر . . والنور على الظلمة . . والحب على البغض . . والهدى على الضلال . . والإيمان على الكفر . . والله على ماسواه .

* * *

(1) سورة الرعد ، آية 17 .

(2) سورة الحج ، آية 30 .

إياكم والطمع

فالزبد جفاء والنافع ماء يمكث فى الأرض
والحق ضياء والباطل داء فى يوم العرض
فخذ الأشياء بهدى وسخاء بعضًا من بعض
ليظل الماء فى كل سماء يحتضن الأرض

فإياكم والطمع فإنه الفقر الحاضر . . وعليكم بالقناعة . . فإنها الغنى المطلق . . فإن غنى الناس . . وسعادة الناس . . باليأس بما فى أيدى الناس . . ويقول الهادى البشير (ﷺ) : « لو أن لابن آدم واديًا من ذهب لتمنى الثانى ولو أعطاه الله الثانى لتمنى الثالث . . ولن يملأ عين ابن آدم إلا التراب !! » .

فقد تجمع . . وقد تطمع . . ولاتدرى لمن تجمع
ألم تسمع . . بما يجرى . . هنا وهناك . . كى تقنع

* * *

هى الدنيا فاحذروها

فقد صحب عيسى (عليه السلام) . . رجلاً فانطلقا إلى شاطئ نهر . . فجلسا يتغديان ومعهما ثلاثة أرغفة . . فأكلا رغيفين . . وبقى رغيف . . فقام عيسى (عليه السلام) إلى النهر فشرب ثم عاد . . فلم يجد الرغيف الثالث . .

فقال للرجل : من أخذ الرغيف . . ؟

فقال الرجل : والله لاأدرى . .

فأخذ عيسى (عليه السلام) بيد الرجل وانطلقا . . حتى إذا أتيا إلى شاطئ بحر . . فأخذ عيسى (عليه السلام) بيد الرجل فمشيا على الماء . . حتى عبرا إلى الشاطئ الآخر . . فقال عيسى (عليه السلام) للرجل : بحق من أراك هذه الآية . . من أخذ الرغيف ؟

فقال الرجل : والله لا أدرى . .

فأخذ عيسى (عليه السلام) بيد الرجل فانطلقا . . فرأى عيسى (عليه السلام) غزالاً فناداه فأتاه الغزال يمشى على قدمين . . فذبحه وشواه . . وأكل هو والرجل . . ثم قال عيسى (عليه السلام) للعظام المتبقية والسيقان والجلد : قومى بإذن الله . . فقام الغزال يمشى على قدميه بإذن الله . .

فقال عيسى (عليه السلام) للرجل : بحق من أراك هذه الآية من أخذ الرغيف ؟ .

فقال الرجل : والله لا أدرى !!

فأخذ عيسى (عليه السلام) بيد الرجل فانطلقا . . فجمع عيسى (عليه السلام) حصى وترابًا . . فقال له : كن ذهبًا بإذن الله . . فكان ذهبًا بإذن الله . .

فقال عيسى (عليه السلام) للرجل : بحق من أراك هذه الآية . . من أخذ الرغيف ؟ فقال الرجل : والله لا أدرى . .

فقام عيسى (عليه السلام) إلى الذهب . . فقسمه ثلاثة أقسام . . وقال للرجل : ثلث لى . . وثلث لك . . وثلث لمن أخذ الرغيف . .

فقال الرجل : أنا الذى أخذت الرغيف . .

فقال عيسى (عليه السلام) : بل خذ الذهب كله لك . . هذا فراق بينى وبينك . . وتركه وانصرف . .

فجلس الرجل مبهورًا مفتونًا أمام الذهب . .

وبينما هو كذلك . . إذ مر عليه رجلان . . فأرادا أن يقتلاه وأن يأخذا الذهب منه . . فقال لهما : بل نقسمه بيننا نحن الثلاثة . .

فجلسوا يقسمونه فجاعوا . .

فقالوا : نرسل أحدنا إلى السوق ليشترى لنا طعامًا . . فأرسلوا أحدهم

إلى السوق . . فقال فى نفسه : لماذا أتركهما يقاسمانى الذهب . . أنا أضع لهما السم فى الطعام ليموتا . . وآخذ الذهب وحدى . .

وقال الآخران : لماذا نتركه يأخذ ثلث الذهب . . إذا جاء قتلناه وقسمنا الذهب بيننا مناصفة . .

فلما جاء قتلاه . . وأكلا الطعام فماتا . . وبقى الذهب . .

فمر عيسى (عليه السلام) ومعه أصحابه . . فرأى الثلاثة قتلى وحولهم الذهب . . فقال عيسى (عليه السلام) لأصحابه : هذه هى الدنيا فاحذروها . .

فقد تجمع . . وقد تطمع . . ولا تدرى لمن تجمع . .

ألم تسمع بما يجرى . . هنا وهناك كى تقنع . .

فارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس !!

* * *

القناعة رأس الغنى

رأيت القناعـــة رأس الغنى	فـصـرت بأذيالهـا ممتسك
فـــلا ذا يرانى على بابه	ولا ذا يرانى به منهـــمك
فــصـــرت غنيًا بلا درهم	أمـر على الناس مثل الملك

فالغنى فى القلب والنفس والوجدان . . وليس غنى المال والجاه والسلطان . . فإياك أن تسـأل الناس شـيئًا أعطـوك أو منعوك . . وإياك أن تقف بباب أحد قد يفتحه لك . . أو قد يغلقه دونك . . وإياك أن ترجو أحدًا إلا الله أو تسأل أحدًا سواه . . فمن اعتمد على الناس ملَّ . . ومن اعتز بماله قلَّ . . ومن اعتز بعلمه ضلَّ . . ومن اعتز بغير الله ذل . . ومن اعتز بالله فلا ذل ولا ضل ولا قل ولا مل . .

اجعل بربك كل عزك   يستقر ويثبت
فإذا اعتززت بمن يموت   فإن عزك ميت

* * *

رب افتح لى كنز الحب   أجمع لؤلؤه فى قلبى
وافتح لى فردوس القرب   أقطف زهرة كل محب
كى آتيك وما فى قلبى   حب إلا حبك ربى[1]

وقد جاء فى الأثر :

(*) « من لزم الطمع . . عدم الورع »

(*) « الطمع أقل ما جمع »

(*) « القناعة كنز لا يفنى »

* * *

(١) من شعر المؤلف .

حق الفقراء على الأغنياء

قال تعالى :

﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلا تَقْهَــرْ * وَأَمَّا السَّائِلَ فَلا تَنْهَرْ * وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[1].

صدق الله العظيم

(١) سورة الضحى : آية ٩ - ١١ .

ويل للأغنياء

حق الفقراء على الأغنياء

يقول تعالى :

﴿ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ * إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (1).

ما على المحسنين من سبيل

﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلا عَلَى الَّذِينَ لا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (2).

أى : ليس على الشيوخ المسنين . . ولا على المرضى العاجزين . . ولا الفقراء المدقعين . . إثم فى القعود عن الجهاد فى سبيل الله إذا أخلصوا الإيمان والعمل الصالح . . فلم يثبطوا الهمم ولم يثيروا الفتن . . لأنهم من أصحاب الأعذار . . والله غفور رحيم . .

﴿ وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ (3).

نزلت هذه الآية فى البكائين السبعة من الأنصار . . الذين جاءوا النبى (ﷺ) وقالوا : يارسول الله . . قد نذرنا الخروج معك للجهاد فاحملنا نجاهد معك فى سبيل الله . . فقال النبى (ﷺ) لاأجد ما أحملكم عليه من الدواب فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع . . من شدة الحزن لأنهم لايجدون ما ينفقونه لغزوهم . .

(1) سورة التوبة آية 91-93 . (2) سورة التوبة آية 91 . (3) سورة التوبة آية 92 .

وهؤلاء قد تقبل الله منهم حسن نياتهم . . وإن لم يعملوا . . لأن « نية المرء خير من عمله » . . و « إنما الأعمال بالنيات . . وإنما لكل امرئ ما نوى » . . و « رب درهم سبق ديناراً . . » .

﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (١) .

أى : إنما الإثم والحرج على الذين يستأذنونك وهم أغنياء . . قادرون على الجهاد فى سبيل الله . . بأموالهم وأنفسهم . . ومع هذا اختاروا القعود فى البيوت مع النساء والأطفال والمرضى والعجزة والشيوخ . . وختم الله على قلوبهم فهم لايهتدون . . وطبع الله على قلوبهم فهم لايؤمنون . . وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون . .

* * *

ويل للغنى من الفقير

وهذه دعوة للأغنياء ليدركوا أنفسهم قبل فوات الأوان . . وحلول الهوان . . فويل للأغنياء من الفقراء يوم القيامة . . وويل للغنى من الفقير يوم القيامة . . وويل للغنى من نفسه يوم القيامة . . فما جاع فقير إلا بتخمة غنى !!

﴿هَا أَنتُمْ هَٰؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ (٢) .

فيا أيها الغنى إن مالك عبء ثقيل عليك . . فقدم حق الله فيه . . حتى يطلق الله قدميك يوم القيامة . . فإن الأغنياء سيدخلون الجنة حبواً . . إن كانوا صالحين فأقرضوا الله يطلق أقدامكم . .

(*) فكم من أرملة مسكينة . . لاتجد عائلاً . . ولا تجد قوت يومها . . تغسل أطفالها بالدموع . . وأطفالها يبكون من شدة الجوع . . ويكاد تنخلع لهم الضلوع . . ولا أحد

---

(١) سورة التوبة آية ٩٣ . (٢) سورة محمد آية ٣٨ .

يسأل عنهم . . والأغنياء قد قست قلوبهم . . وأنساهم المال هؤلاء الأطفال . . وأولئك الأشلاء . . فويل للأغنياء . .

(*) وكم من يتيم مسكين . . لايجد أبًا يناديه . . ولا أمًا تراعيه . . ولا أحد يطعمه ويسقيه . . ويمر عليه الغنى مرور الكرام . . وقد شغله المال وألهاه العيال . . وأنواع السيارات والموديلات . . وعدد العمارات . . ولا يشعر بمن ينام فى الطرقات . . يعانى من العذاب . . حافى القدمين . . مهلهل الثياب . . يبحث عن لقمة هنا أو هناك . . وينظر إليه الناس بازدراء . . فويل للأغنياء . .

(*) وكم من عجوز مسكين . . يعيش حياته سدى . . لايجد من يمد له يدًا . . ينام فى الطل والندى . . وقد قست القلوب . . وازدادت الذنوب . . واشتدت الغفلة . . وعم البلاء . . فويل للأغنياء . .

(*) وكم من فتاة مسكينة . . فى أشد الاحتياج . . إلى من يحصنها بالزواج . . تحتاج إلى قطعة من أثاث . . مرتبة أو لحاف . . ليتم لها الزفاف . . ولكن لا أحد ينظر إليها . . ولا قلب يحنو عليها . . وقد تركت للضياع . . ومخالب السباع . . تعبث بها الأهواء . . فويل للأغنياء . .

(*) وكم من أسرة مسكينة . . لاتجد حجرة تؤويها . . أو عشة تحميها . . من قيظ الحر . . وبرد الشتاء . . تنام فى العراء . . تفترش الأرض . . وتلتحف السماء . . فويل للأغنياء . .

(*) وكم من مريض ذى عيال . . يعانى من مرض عضال . . وقد أثقله الداء . . لايجد ثمن الدواء . . فويل للأغنياء . .

وصدق رسول الله (ﷺ) . . حيث قال :

« سيأتى زمان على أمتى يحبون خمسًا وينسون خمسًا . . يحبون الدنيا وينسون الآخرة . . ويحبون المال وينسون الحساب . . ويحبون الخلق وينسون الخالق . . ويحبون النساء وينسون الحور (*) . . ويحبون القصور وينسون القبور . . » (1) .

(*) فى رواية أخرى للحاكم (يحبون الذنوب . . وينسون التوبة . .).

(1) رواه ابن ماجه وغيره .

فماذا جرى للأغنياء . .

لماذا لم يعد يشعر الأغنياء بالفقراء . . إن الأغنياء متهمون أمام الله . . متهمون أمام الناس . . بإهمال حقوق الفقراء . . لأن حقوق الفقراء فى أيدى الأغنياء . . ففى الحديث القدسى :

الفقراء عيالى . . والأغنياء وكلائى . . فإن بخل وكلائى على عيالى . . بفيض مالى . . أذقتهم وبالى . . ولا أبالى . .

فقم إلى الفقير واسع إليه . . ولا تنتظر حتى يأتى إليك . . فإن من الفقراء فقراء لا يسألون الناس إلحافًا . .

ولقد كان أبو بكر الصديق (رضي الله عنه) . . إذا جاءه الفقير . . قام إليه . . وأحسن إليه وأكرمه . . ثم يبكى . . فيقولون له : ما يبكيك يا أبا بكر ؟ . .

فيقول : أبكى من أجل هذا المسكين . .

فيقولون له : ألم تكرمه . . ألم تحسن إليه ؟ . .

فيقول : بلى . . ولكنى أبكى لأنى تركته حتى يسعى إلىّ ولم أسع أنا إليه . . ومن القصص التى أعجبتنى تلك القصة التى حدثت فى الولايات المتحدة الأمريكية . . ففى ذات يوم قبض البوليس الأمريكى على رجل من أهالى ولاية كاليفورنيا . . لاتهامه بسرقة رغيف . . وعندما قدم للمحاكمة . . اعترف الرجل بالسرقة . . ولما كان القاضى الجنائى فى أمريكا . . له حرية واسعة فى اختيار العقوبة المناسبة . . فقد رأى ألا يحكم على المتهم بأكثر من عشرة دولارات . . ولكن القاضى المنصف بعد أن نطق بالحكم . . أخرج من جيبه العشرة دولارات وأعطاها للمتهم . . وكانت هذه أول مفاجأة للجمهور الذى حضر المحاكمة . . أما المفاجأة الحقيقية . فكانت عندما أدار القاضى عينيه فى وجوه الحاضرين بقاعة المحكمة . . وحكم على كل واحد منهم بنصف دولار غرامة . . وعندما سألوه عن ذلك . . وقام له أحد الحاضرين قائلاً :

لماذا هذه الغرامة يا سيدى القاضى . . ولم نرتكب مخالفة ولا جرمًا . . قال القاضى : لأنكم لم تشعروا أن بينكم جائعًا دفعه الجوع إلى سرقة رغيف . .

والمثل الإنجليزى يقول :

أعطنى قاضيًا عادلاً . . ولو مع قانون ظالم . .

ولا تعطنى قانونًا عادلاً . . مع قاض ظالم . .

الله يوصينى	من يوم تكوينى
بالحب ننشده	عند المساكين
وبأن نعايشهم	بعض الأحايين
بالقلب والروح	والعقل والدين
ويقول من منكم	يسعى ليرضينى
فأنا ومرضاتى	عند المساكين
هم أهل مرضاتى	وطريق جناتى
وعيون إحسانى	ودليل خيراتى
ووصية الله	ووصية الدين
يامن على دينى	ويريد تأمينى
فأنا وهذان	عند المساكين(*)

* * *

(*) من شعر المؤلف .

جنات عدن

قال تعالى :

﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾[1] .

صدق الله العظيم

(١) سورة فاطر - آية ٣٢ .

فى جنات عدن

يقول تعالى :

﴿ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ * ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ (١).

هذه الآيات التى بين أيدينا من سورة فاطر . . وسورة فاطر من السور المكية . . التى نزلت قبل هجرة الرسول (ﷺ) .

يقول تعالى :

﴿ والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق ﴾

أى : والذى أوحينا إليك يامحمد من القرآن العظيم . . هو الحق الذى لاشك فيه . .

﴿ مصدقا لما بين يديه ﴾

أى : مصدقًا لما سبقه من الكتب السماوية : التوراة والإنجيل والزبور . .

﴿ إن الله بعباده لخبير بصير ﴾

أى : هو جل وعلا خبير بعباده . . محيط بهم . . بصير لاتخفى عليه خافية من شئونهم . .

﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾

أى : ثم أورثنا القرآن العظيم لخير أمة أخرجت للناس وأفضل الأمم . . أمة محمد (ﷺ) وخصصناهم بالقرآن العظيم المعجزة الباقية الخالدة على طول الزمان . .

(١) سورة فاطر آية ٣١ - ٣٥ .

تفنى الخـوارق فى ثوان   فالكل فان الكل فان
فلكل عصر معجزة   ولكل معجزة أوان
لكن معجزة الهدى   تبقى على مر الزمان[1]

﴿ فمنهم ظالم لنفسه .. ومنهم مقتصد .. ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله ﴾

أى : منهم العاصى . . ومنهم المقتصد فى طاعته . . ومنهم المخلص فى طاعته أى : منهم المسىء . . ومنهم المحسن . . ومنهم دون ذلك . . وكلهم من أهل الجنة إن شاء الله . .

﴿ ذلك هو الفضل الكبير ﴾

أى : ذلك هو الشرف العالى . . والفضل الغالى . .

﴿ جنات عدن يدخلونها ﴾

أى : جنات نعيم مقيم يتنعمون فيها بشتى ألوان النعيم . . فى الفردوس الأعلى . . فى جنات عدن . . فى جنة المأوى . . فى جنة الخلد . . فى جنة رضوان . . فى جنة عليين . . فى جنة النعيم . . فى دار السلام . . فى دار المقامة . . فى يوم القيامة . .

﴿ يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ﴾

أى : يزينون فى الجنة بأساور من ذهب مرصعة باللؤلؤ . . ومامن أحد من الجنة إلا فى يده ثلاثة أسورة (أساور) سوار من ذهب . . سوار من فضة . . سوار من لؤلؤ . .

﴿ ولباسهم فيها حرير ﴾

أى : جميع ملابسهم فى الجنة من حرير خالص . .

﴿ وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن ﴾

أى : الحمد لله الذى أذهب عنا : الهموم ، والأحزان ، والأمراض ، والأنكاد ، والمخاوف ، والأوهام ، والفقر ، والموت ، وأهوال القيامة ، وعذاب النار . .

---

(١) من شعر المؤلف .

﴿ إن ربنا لغفور شكور ﴾

أى : إن الله غفور لعباده المذنبين . . وشكور لعباده المحسنين . .

﴿ الذي أحلنا دار المقامة من فضله ﴾

أى : الذى أدخلنا الجنة وأسكننا فيها . . وجعلها مقرًا لنا وسكنًا . . لا نتحول عنها أبدًا . . وكل ذلك من فضله ورحمته . .

﴿ لا يمسنا فيها نصب . . ولا يمسنا فيها لغوب ﴾

أى : لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة . . ولا يصيبنا فيها وهن ولا ضعف . . فالجنة بيت من قصب . . لا وصب فيه ولا نصب . . أى لاتعب فيها ولا مشقة . . فعندما ماتت خديجة (رضى الله عنها) وحزن النبى (ﷺ) حزنًا شديدًا . . نزل جبريل (عليه السلام) . . على رسول الله (ﷺ) . . وقال له : الله يقرؤك السلام . . ويقول لك : لا تحزن على خديجة . . فإن خديجة فى الجنة فى بيت من قصب . . لا وصب فيه ولا نصب . .

والبيت من قصب : أى من أنابيب الجوهر . . وعناقيد اللؤلؤ . . بنى على الزبرجد . . وشيد بالعسجد .

الفردوس الأعلى

من طلب حياة طيبة	فالسبل إليها ميسورةْ
يدفع بالحسنى سيئة	ويفوض لله أمورهْ
ما يأتى الفانى فى الباقى	والعمر ثوان محصورةْ
ما بين حياة وممات	والتقوى فيهن ضرورةْ
وهنالك فردوس أعلى	وحياة خلود موفورةْ
وملائك من نور بيض	والطير هنالك محشورةْ
والحور بجنة فردوس	والكوثر عانق كافورهْ
والحسن قناديلٌ خضرٌ	تتخلل من نور نورهْ
ويطوف عليهم ولدان	كانت كلآلئ منثورةْ
إن تصدق موعدنا الجنة	وجميع ذنوبك مغفورةْ

شجرة البرية

(*) هذا وإن البشرية شجرة . . الناس أوراقها . . وهى شجرة فى السماء . . عند سدرة المنتهى . . مكتوب على كل ورقة من أوراقها اسم صاحبها . . فمن حان أجله . . نطح الموت وهو كبش أسود تلك الشجرة . . فسقطت ورقة صاحبها . . فمات فى الأرض . .

* * *

حياة ولا موت

فإذا كان يوم القيامة . . يوم الحسرة والندامة . . ودخل أهل الجنة الجنة . . ودخل أهل النار النار . . جاء الله تعالى بالموت . . ذلك الكبش الأسود . . وذبحه بين الجنة والنار . . ونادى فى هؤلاء وهؤلاء :

يا أهل الجنة حياة ولا موت . . يا أهل النار حياة ولاموت . . فالموت مات . . فينعم أهل الجنة . . وييأس أهل النار . . ويسعد أهل الجنة . . ويشقى أهل النار . . ويفرح أهل الجنة . . ويحزن أهل النار . . ويأمن هؤلاء . . وينقطع رجاء هؤلاء . .

* * *

منزل الملوك

هذا : وعندما خلق الله الجنة وزينها بالياقوت والزعفران . . والمسك والريحان . . والحور والولدان . . واللؤلؤ والمرجان . . والرضا والرضوان . . وبكل ماكان . . مما لاعين رأت . . ولا أذن سمعت . . ولا خطر على قلب بشر . قال لها يا جنة : تكلمى .

قالت : « قد أفلح المؤمنون . . سعد من دخلنى . . »

وقالت الملائكة : « طوبى لك منزل الملوك . . »

قال الله تعالى : «وعزتى وجلالى لايجاورنى فيك بخيل . . »[1].

---

(١) رواه الطبرانى .

قرة أعين

ففى الحديث القدسى يقول الله عز وجل :

« أعددت لعبادى الصالحين . . ما لاعين رأت . . ولا أذن سمعت . . ولا خطر على قلب بشـر » واقرأوا إن شئتم قوله تعالى : ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ * فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[1] .

بغير حساب

ويقول الهادى البشير (ﷺ) : « يدخل الجنة من أمتى سبعمائة ألف بغير حساب . . متماسكون آخذ بعضهم ببعض . . لايدخل أولهم حتى يدخل آخرهم . . وجوههم كالقمر ليلة البدر »[2].

مائة درجة

هذا : « وإن فى الجنة مائة درجة مابين كل درجتين كما بين السماء والأرض »[3].

وعن أبى هريرة (رضي الله عنه) قال : « قلت يا رسول الله حدثنا عن الجنة ما بناؤها ؟ » .

وصف الجنة

قال (ﷺ) : الجنة لبنة من ذهب ولبنة فضة . . ملاطها المسك . . وحصباؤها الياقوت واللؤلؤ . . وترابها الزعفران . . من يدخلها ينعم ولا ييأس . . ويسعد فلا يشقى . . ويخلد فلا يموت . . لا تبلى ثيابه . . ولا يفنى شبابه »[4] .

* * *

(١) رواه أحمد . . الأيتان ١٦ ، ١٧ السجدة .
(٢) رواه البخارى ومسلم .
(٣) رواه أحمد .
(٤) رواه أحمد .

الجمال كله

هذا : ومهما أسرفنا فى الكلام عن الجنة . . فلن نرقى إلى وصف وصفها . . وخير وصف لها . . ماجاء فى الأثر : ما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

هذا . . وإن هناك ماهو خير من الجنة وأجمل منها . . فإذا كنا نطمع فى الجنة لنعيمها وجمالها فإن هناك ماهو أجمل منها . . وأنعم منها . . وأسعد منها . . إنه الله تعالى . .

فإذا نظرت إلى الجمال . . قلت الله . . وإذا نظرت إلى الحسن . . قلت الله . . فما بالك بصانع الجمال ذاته . . وكيف بك بصانع الحسن ذاته ؟ . . كيف يكون جماله . . كيف يكون حاله ؟ . . كيف بك بالله تعالى ؟ . . إنه الجمال كله . . أصله وظله . . وكيف لو رأينا الله بحاله ؟ . . وكيف لو تجلى علينا بحسنه وجماله ؟! وكيف لو كسانا من كماله ؟! وطوانا فى خلاله ؟! وأشرق علينا بجماله ؟! وحبانا من نواله ؟! وانعكس البصر بالبصيرة؟! والسر بالسريرة ؟! والقدس بالحظيرة ؟! فرأيت سبحات الحى . . وتلألأت أنواره عليه . . وتعددت أضواؤه لديه . . ورأيت من ليس كمثله شىء . . ورأيت الوجه الكريم فى اليوم العظيم . . ورأيت الوجه المجيد فى يوم المزيد . . فإن لأهل الجنة شوقًا وموعدًا . . شوقًا إلى الله تعالى . . وموعدًا مع الله تعالى . . فيقولون :

أى ربنا . . أرنا ننظر إليك . . أرنا وجهك الكريم . .

فيأمر الله تعالى السحب أن تنقشع . . والحجب أن تنكشف . . فتنقشع السحب . . وترتفع الحجب . . فيتجلى الله عليهم . . بوجهه الكريم . . ونوره العظيم . . ومجده القديم . . وسلطانه المبين . . ويتلألأ عليهم بأنواره . . ويتجلى عليهم بأسراره . . فثم الشهادة . . ومنتهى السعادة . . ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [1] .

اللهم إنا نسألك بوجهك الكريم . . ونورك العظيم . . ومجدك القديم . . وسلطانك المبين . . ياعلى ياعظيم . . أن تمتعنا بالنظر إلى وجهك الكريم . . فى جنات النعيم . .

* * *

(١) سورة يونس الآية ٢٦ .



الفوز العظيم

قال تعالى :

﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾[1] .

صدق الله العظيم

---

(١) سورة التغابن - آية ٩ .

الفوز العظيم

يقول تعالى :

﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ فَذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ✽ ذَلِكَ بِأَنَّهُ كَانَت تَّأْتِيهِمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالُوا أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوا وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ✽ زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ✽ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ✽ يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (1) .

تلك الآيات التى بين أيدينا من سورة التغابن . . وسورة التغابن من السور المدنية التى تعنى بالتشريع . . وإن أخذت شكل السور المكية التى تعالج أصول العقيدة .

يقول تعالى :

﴿ ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ﴾

أى : يا معشر قريش ألم يأتكم خبر الأمم الماضية . . ماذا حل بهم من العذاب والنكال . . على كفرهم فى الدنيا . . ولهم فى الآخرة عذاب أليم شديد موجع . .

﴿ ذلك بأنه كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد ﴾

أى : ذلك العذاب الذى ذاقوه فى الدنيا . . وسيذوقونه فى الآخرة بسبب كفرهم وإنكارهم أن يكون الرسول بشرًا . . وإيمانهم أن يكون المعبود حجرًا . . بعد أن جاءتهم البينات والمعجزات . . فاستغنى الله عنهم وعن إيمانهم . . لأنه سبحانه وتعالى لا تنفعه طاعة من أطاع . . ولا تضره معصية من عصى . . وهو الغنى عن العالمين .

---

(1) سورة التغابن آية ٥ - ٩ .

﴿ زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا .. قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير ﴾

أى : ادعى كفار مكة أن الله تعالى لن يبعثهم من قبورهم بعد موتهم . . قل لهم يامحمد . . والله لتبعثن من قبوركم أحياء . . وتخبرن بجميع أعمالكم صغيرها وكبيرها عظيمها وحقيرها . . وتجزون بها . . وذلك أمر يسير على الله تعالى . . لأن الإعادة أسهل من الابتداء . .

﴿ فآمنوا بالله ورسوله والنور الذي أنزلنا والله بما تعملون خبير ﴾

أى : آمنوا بالله تعالى وصدقوا به وبرسوله وبالقرآن الذى أنزله على نبيه (ﷺ) فإنه النور الوضاء . . الذى يبدد الظلماء . . والله خبير بكم . . لاتخفى عليه خافية . . قاصية ولا دانية . .

﴿ يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم التغابن ﴾

أى : واذكروا ذلك اليوم العظيم . . يوم القيامة . . يوم الحسرة والندامة . . ذلك اليوم الذى يجمع الله فيه الأولين والآخرين فى صعيد واحد للحساب والجزاء . . والذى يظهر فيه خسران الكافرين بتركهم الإيمان . . وفوز المؤمنين بالرضا والغفران والخلد فى الجنان . .

﴿ ومن يؤمن بالله ويعمل صالحا يكفر عنه سيئاته ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ذلك الفوز العظيم ﴾

أى : ومن يؤمن بالله ويعمل عملاً صالحًا يمح الله ذنوبه . . ويدخله جنات النعيم . . تجرى من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة . . وذلك الفوز الذى لافوز بعده . . والنعيم المقيم . . والسعادة التى لاسعادة بعدها . . فى جنات النعيم .

* * *

بشائر أهل الجنة

وجمال الحور العين

هذا . . وإن أول من يدخل الجنة من أمة محمد (ﷺ) طائفة وجوههم كالبدر ليلة التمام . . والذين يلونهم كالكوكب الدرى فى السماء . . ولكل واحد منهم من الحور العين ما يشاء . . ملكة من ملكات الحسن والجمال . . لو أن واحدة من الحور العين أخرجت إصبعها إلى الدنيا . . لملأت الأرض نوراً . . ومسكًا وكافوراً . . وفرحًا وسروراً . . ﴿ وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا * عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِن فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا * إِنَّ هَذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ﴾[1] .

ولو أن واحدة من الحور العين وضعت إصبعها فى سبعة أبحر ملح أجاج . . لصار ماؤها عذبًا فراتًا سائغًا للشاربين . .

ولو أن واحدة من الحور أطلت بوجهها على الدنيا . . لأطفأ نور وجهها ضوء الشمس والقمر . . وكيف لا . . وقد أعد الله لعباده الصالحين ما لا عين رأت . . ولا أذن سمعت . . ولا خطر على قلب بشر . .

وصف أهل الجنة

هذا . . « وإن أهل الجنة جرد مرد كحل . . لاتبلى ثيابهم . . ولايفنى شبابهم »[2] .
و « إن أهل الجنة لايتغوطون ولايتبولون ولايتمخطون ولا يتفلون »[3] .

عرقهم المسك والعنبر . . وطعامهم الطير والأذفر . . وشرابهم الخمر والكوثر . . وثيابهم السندس الأخضر . . على كثبان من ياقوت أحمر . . وزبرجد أصفر . . ورضوان من الله أكبر . .

---

(١) سورة الإنسان آية ١٩ - ٢٢ . (٢) رواه الطبرانى . (٣) رواه أحمد .

يزيد وينقص

هذا . . والمعروف أن الجمال ينقص كلما نظرت إليه . . وأمعنت النظر فيه . . ولكن جمال الحور العين يزداد كلما نظرنا إليه وأمعنا النظر فيه . .

ولعله المقصود بقول الشاعر :

يـزيـدك وجههـا حسـنا إذا مـا زدتـه نـظـراً

ولعله المعنى المقصود فى بطن الشاعر :

هيفاء

هيفاء مال بها النعيم فخطوها دون القطاة ونطقـهـا إيماء

ترنو بأحـور لو تمكن لحظة من صـخـرة لا رفض منهـا الماء

حكـم الجمـال لهـا بمـا تختـاره فتحكمت فى الناس كيف تشاء[1]

بين الله وبين عباده

هذا . . وقد ورد أن الله تعالى يكلم عباده يوم القيامة كلاً على حدة . . فما من عبد إلا ويكلمه ربه يوم القيامة ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾[2] . . فيقول الله تعالى :

عبدى . . : ألم أخلقك . . ؟

فيقول . . : بلى يارب العالمين . .

فيقول الله تعالى : ألم أسودك ؟ . .

فيقول : بلى يارب العالمين .

---

(١) من شعر البارودى .

(٢) سورة النحل آية ١١١ .

فيقول الله تعالى : ألم أرزقك ؟

فيقول : بلى يارب العالمين .

فيقول الله تعالى : ألم أكرمك ؟

فيقول : بلى يارب العالمين .

فيقول الله تعالى : ألم أسخر لك ما فى السموات والأرض . . والشمس والقمر والكواكب والنجوم والجبال والتلال . . والأنهار والبحار . . والأشجار والثمار . . والليل والنهار . . والسحاب والدواب . . والماء والهواء . .

فيقول : بلى يارب العالمين .

فيقول له : فهل تذكرت لقائى هذا . . ووقوفك بين يدى . . ؟

فيقول : لا . . يارب . . قد نسيت . .

فيقول الله له : اليوم أنساك كما نسيتنى . . وأدخلك النار .

* * *

ستر فى الدنيا والآخرة

أما إذا كان العبد صالحًا . . من أهل الجنة . . قال الله تعالى له :

عبدى . . انظر . .

ويعرض عليه أعماله كلها . . فيراها ماثلة أمامه . . كما كانت فى الدنيا . . فتسره الحسنة . . وتُسيئه السيئة . .

فيقول الله تعالى :

عبدى انظر إلى هذه المعصية . . انظر إلى هذا الذنب . . انظر إلى تلك السيئة . . فينظر العبد . . وهو يستحيي من الله أشد الحياء . .

فيقول الله له : عبدى لقد سترتها عليك فى الدنيا . . واليوم أسترها عليك فى الآخرة . . وأكفر عنك سيئاتك وأدخلك جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ذلك الفوز العظيم . .

* * *

ثلاث وثلاثون سنة

سن أهل الجنة

وقد ورد أن الله تعالى حين يدخل أهل الجنة الجنة . . يردهم إلى سن الشباب . . فما من أحد يموت صغيرًا أو كبيرًا إلا رده الله إلى سن الشباب . . ثلاث وثلاثين . . فمن مات طفلاً أو صبيًا أو شابًا . . رده الله إلى سن الشباب ثلاث وثلاثين . . ومن مات كبيرًا أو شيخًا أو عجوزًا أو كهلاً . . رده الله إلى سن الشباب . . ثلاث وثلاثين سنة . . سن أهل الجنة . . ثم يربط الله أعمارهم على هذه السن . . ليظلوا شبابًا دائمًا . . ويدخلهم الجنة أبناء ثلاث وثلاثين سنة على هيئة آدم (عليه السلام) . . وقوة موسى (عليه السلام) . . وجمال يوسف (عليه السلام) . . وقلب أيوب (عليه السلام) . . وأخلاق محمد (ﷺ) .

* * *

صلاة الليل

قال تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾[1]

صدق الله العظيم

(١) سورة المزمل - آية ١ - ٤ .

صلاة الليل

يقول تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً * رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً * وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾ (١) .

هذه الآيات التى بين أيدينا من سورة المزمل . . وسورة المزمل من السور المكية . .

جاء فى الصحيح :

أن رسول الله (ﷺ) لما جاءه جبريل (عليه السلام) . . وهو فى غار حراء فى ابتداء الوحى عاد إلى خديجة يرجف فؤاده . . وقال : زملونى . . زملونى . . لقد خشيت على نفسى . . وأخبرها بما جرى . . فنزلت :

﴿ ياأيها المزمل ﴾

أى : ياأيها المتلفف من شدة البرد . .

﴿ قم الليل إلا قليلا ﴾

أى : دع التزمل والتلفف . . وانشط لصلاة الليل . . لتستقبل الأمر العظيم . . والقرآن الكريم لتبلغ الدين الجديد إلى الناس . .

﴿ نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا ﴾

أى : قم نصف الليل أو أقل من النصف قليلاً . . أو أكثر من النصف قليلاً . . بحيث لايزيد عن الثلثين . . ولايقل عن الثلث . .

---

(١) سورة المزمل آية ١ - ١٠ .

قال : لماذا يارب ؟

قال : ﴿ إنا سنلقى عليك قولاً ثقيلا ﴾

أى : سننزل عليك يامحمد القرآن العظيم . . وهو وحى عظيم من عند الله تعالى . . ثقيل فى حمله . . يسير على من يسره الله عليه . . ولن يتيسر عليك يامحمد إلا بقيام الليل . . والصلاة . . والتهجد والتعبد والقنوت والتبتل . . حتى يسمو قلبك . . وتصفو روحك . . وتعلو همتك . . وتقوى عزيمتك . . لتحمل هذا النور العظيم . . والذكر الحكيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . . . فلقد كان قيام الليل فرضًا على رسول الله (ﷺ) وكان ترتيل القرآن ليثبت الله به فؤاده (ﷺ) فى استقبال هذا النور . . وتحمل هذا الحضور . .

﴿ إن ناشئة الليل هى أشد وطئا وأقوم قيلا ﴾

أى : إن ساعات الليل هى أهدأ وأصفى للعبادة . . لما فيها من سكون وهدوء . . حيث تهدأ الأصوات . . وتسكن الحركات . .

﴿ إن لك فى النهار سبحا طويلا ﴾

أى : اجعل النهار للعمل والإفادة . . واجعل الليل للذكر والعبادة . .

﴿ واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا ﴾

أى : استعن بذكر الله على ما سواه . . وانقطع للعبادة . . ولا تعتمد إلا عليه . . ولا تلجأ إلا إليه . .

﴿ رب المشرق والمغرب . . لا إله إلا هو فاتخذه وكيلا ﴾

أى : هو وحده الخالق المدبر لشئون خلقه فى مشارق الأرض ومغاربها . . فاعتمد عليه . . وتوكل عليه . . وفوض أمورك إليه . .

﴿ واصبر على مايقولون واهجرهم هجرا جميلا ﴾

أى : واصبر على أذى السفهاء بما يتقولونه عليك . . من قولهم ساحر أو شاعر أو مجنون . . ولا تتعرض لهم بأذى . . فإن الله ناصرك عليهم بنصره المبين .

مرابط فى سبيل الله

هذا . . ولقد كان رسول الله (ﷺ) يصلى صلاة الليل ولا ينام عنها أبدًا . . لا فى سفر ولا حضر . . ولا صحة ولا مرض . . ولا فى صيف ولا شتاء . .

وكان (ﷺ) يصلى الصلاة . . حتى تتورم قدماه . . فكان يصلى والناس نيام . . حتى تتورم منه الأقدام . . فتسأله عائشة (رضى الله عنها) وتقول :

يا رسول الله . . لم كل هذا . . وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟!

فيقول لها : يا عائشة . . أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟!

* * *

رحمة ورأفة

هذا . . ولقد كان رسول الله (ﷺ) يطيل فى صلاته . . ماشاء الله أن يطيل . . مادام يصلى وحده . . فإذا صلى بالناس جماعة خفف عنهم . .

* * *

على رأس كل آية

وكان (ﷺ) يقف على رأس كل آية . . فإذا كانت آية رحمة . . سأل الله الرحمة . . وإذا كانت آية عذاب . . استعاذ بالله من العذاب . . وإذا كانت آية استغفار . . استغفر الله تعالى . . وإذا كانت آية توبة . . تاب إلى الله وأناب . .

* * *

لا تفعلوا مثلى .. إنى لست كهيئتكم

وذات ليلة كان رسول الله (ﷺ) يصلى صلاة الليل فى مسجده الشريف . . فسمعه أحد الصحابة . . فدخل يصلى خلفه ركعتين . . وكان (ﷺ)يصلى بالبقرة ولم يكن يعلم أن وراءه رجلاً يصلى . . فاسترسل وأطال . . حتى ضاق الرجل من طول

القنوت . . فقال فى نفسه : لعل النبى (ﷺ) يركع بجزء منها . . ولكن النبى (ﷺ) استرسل وأطال . . فقال الرجل : لعل النبى يركع بنصفها . . ولكن النبى (ﷺ) استرسل وأطال . . فقال الرجل : لعل النبى (ﷺ) يركع بثلثيها . . ولكن النبى (ﷺ) استرسل وأطال . . فقال الرجل : لعل النبى (ﷺ) يركع بالبقرة كلها . . ولكن النبى (ﷺ) استرسل وأطال . . وختم البقرة . . وبدأ فى آل عمران . . فقال الرجل : فهممت بأمر سوء . . أى : هم أن يخرج من الصلاة . . لولا أن النبى (ﷺ) أحس بى فعجل فى صلاته . . فلما فرغ من الصلاة . . نظر إلى وقال : ماعلمت بك حتى عجلت . . « لاتفعلوا مثلى فلقد أوتيت قوة سبعين منكم . . » .

« إنى لست كهيئتكم . . إنى أبيت عند ربى فيطعمنى ويسقينى » .

* * *

فضل صلاة الليل

هذا ولقد جاء فى فضل صلاة الليل قوله (ﷺ) :

(*) « ركعتان فى جوف الليل خير من الدنيا وما فيها »[1] .

* * *

فى جوف الليل

قل ركعتان بجوف الليل تنزيهًا	خير لدى من الدنيا وما فيها
أخلو إلى الرحمن فى ملكوته	فأرى بقلبى نور الله تشبيها [2]

كسانا من جماله

(*) « وكان الحسن بن على (رضي الله عنه) أسمر اللون فابيض وجهه . . فقيل له : يا حسن . . لقد كنت فينا أسود اللون . . فما الذى بيض وجهك هكذا ؟ !

قال : « خلونا إلى الله بالليل . . فكسانا من جماله . وكسانا من جلاله . . وكسانا من كماله . . » .

---

(١) رواه الطبرانى .

(٢) من شعر المؤلف .

زاد الآخرة

(*) ويقـول أبو ذر (رضي الله عنه) قـال لي رسـول الله (ﷺ) : « ياأبا ذر . . إذا أردت سـفـراً أعـددت له عـدة ؟ . . قلت : نعـم يا رسول الله . . قال : كيف سفر الآخرة ؟ . يا أبا ذر ألا أنبئك بما ينفعـك ذلك اليوم . . قلت : بلى . . بأبي أنت وأمي يارسول الله . . قال : يا أبا ذر : صم يومًا شديد الحر ليوم النشـور . . وصل ركعـتين في جوف الليل لظلمة القبور . . وحج حجة لعظائم الأمور . . وتصـدق بصدقة على مسكين . . وكلمة حق تقولها . . وكلمة شر تسكت عنها . . »[1].

* * *

أول من يدخلون الجنة

(*) هذا . . وقـد ورد أن الذين يصلون الليل . . هم أول من يدخلون الجنة . . فقـد جاء في الحديث الشريف : « يحشر الناس في صعيد واحد يوم القيامة . . فينادي مناد . . فيقـول : أين الذين كـانت ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ . . فيقومون وهم قليل . . فيدخلون الجنة . . بغير حساب . . ثم يؤمر بسائر الناس إلى الحساب »[2].

* * *

ركعة بالليل بألف بالنهار

هذا . . واعلم أن ركعة بالليل والناس نيـام . . بألف ركعة بالنهـار والناس قيام . . وأن ركعـة قبل الفجـر خير مـن ألف بعد الفجـر . . وركعة بالليل خير من ألف بالنهار . . فـقـد جاء في الحـديث : « أشـراف أمتي حـملة القـرآن . . وأصـحاب الليل . . »[3]

(١) رواه مسلم . (٢) رواه الطبراني . الآية ١٦ سورة السجدة . (٣) رواه ابن ماجه .

وشرف المؤمن فى قيام الليل . . وعزه استغناؤه عن الناس . . و«من بات فى خفة من الطعام والشراب . . يصلى . . تراكضت حوله الحور العين حتى يصبح »[1] .

* * *

جاء فى التوراة

وعن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال : « جاء فى التوراة : إن الله تعالى أعد للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفًا وطمعًا ومما رزقناهم ينفقون . . مالم تر عين . . ولم تسمع أذن . . ولم يخطر على قلب بشر . . ولا يعلمه ملك مقرب . . ولا نبى مرسل . . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2] .

* * *

يصلى فى قبره

(*) وكان سيدنا ثوبان (رضي الله عنه) محبًا لصلاة الليل . . مرابطًا عليها . . فلما حضرته الوفاة . . دعا ربه قائلاً : «اللهم إن مكنتنى من شىء فى قبرى بعد موتى فمكنى من صلاة الليل . . فشاهده أصحابه يصلى الليل فى قبره بعد موته » . .

* * *

جمال نعلها وجمال وجهها

(*) وكان أحد الصالحين قد اعتاد قيام الليل . . وذات ليلة تثاقل عن القيام بعض الوقت من شدة البرد . . فرأى نورًا يسطع مابين السماء والأرض . . فقام فزعًا مذعورًا . . يقول : ما هذا يا إلهى . . فقيل له : ياغافل هذا جمال نعلها . . فما بالك بجمال وجهها . . أى : جمال الحور العين التى تزف إلى من يقوم الليل . .

* * *

---

(١) رواه أحمد .

(٢) رواه الحاكم وغيره . . الآية ١٧ سورة السجدة .

رحم الله رجلا وامرأة

(*) هذا . . وقد جاء فى فضل قيام الليل . . قوله (ﷺ) : « رحم الله رجلاً قام من الليل يصلى . . وأيقظ امرأته . . فإن أبت نضح فى وجهها الماء . . ورحم الله امرأة قامت من الليل تصلى . . وأيقظت زوجها . . فإن أبى نضحت فى وجهه الماء . . فإن فعلا كتبا فى الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات . . وإن فعلا غُفر لهما ماتقدم »[1].

* * *

فى السر والعلن

(*) هذا . . وإن فضل صلاة الليل على صلاة النهار . . كفضل صدقة السر . . على صدقة العلانية[2] . .

* * *

أقيموا الليل

ويقول الهادى البشير (ﷺ) : « عليكم بصلاة الليل ولو ركعة واحدة »[3] .

أى : أقيموا الليل ولو بركعة واحدة . . أى : بركعة الوتر . .

* * *

الشيطان يشهر إسلامه

(*) هذا . . وإن من فضل صلاة الليل وحسن ثوابها عند الله تعالى . . حيث تشهدها الملائكة . . ما جعل الشياطين تتسلل لإفسادها على أصحابها . . حتى على رسول الله (ﷺ) ذاته . . يقول الهادى البشير (ﷺ) : « تسلل الشيطان إلىّ البارحة وأنا أصلى صلاة الليل وأراد أن يقطع على صلاتى (أى يفسدها) فمكننى الله منه . . فأمسكت برقبته . . ولولا أننى تذكرت دعوة أخى سليمان ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِ

---

(1) رواه الطبرانى . (2) رواه الحاكم . (3) رواه البزار .

رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ (٣٦) وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ لربطته فى سارية من سوارى المسجد . . يلهو به أطفال المدينة فى الصباح . . ولكن الله أعاننى عليه فأسلم . . وشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله [1] . .

* * *

رابعة العدوية

(*) هذا . . ولقد كانت رابعة العدوية (رضى الله عنها) تحيى الليل كله بالعبادة . . فكانت تصلى مائة ركعة بالليل . . وهى تناجى ربها :

غارت النجوم ونامت العيون . . ولم يبق إلا أنت ياحى ياقيوم . . غارت النجوم ونامت العيون . . وخلا كل حبيب بحبيبه . . وها أنذا على بابك . . أتراك قبلتنى فى رحابك . . وكتبتنى فى أحبابك . . أم رددتنى من على بابك . . وطردتنى من رحابك . .

* * *

الجنة والنار

كلهم يعبدون من خوف نار ... ويرون النجاة فوزاً جزيلا

ليس لى فى النار والجنان حظ ... أنا لست أرضى بربى بديلا [2]

* * *

أحبك حبين

ثم تقول :

أحبك حبين حب الهوى ... وحباً لأنك أهل لذاكا

فأما الذى هو حب الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سواكا

---

(١) رواه أحمد الأيتان ٣٦ ، ٣٧ سورة ص .

(٢) من شعر رابعة العدوية .

وأمـــــا الذى أنت أهـل لـه — فكشفك للحجب حتى أراكا
فـلا الحـمـد فى ذا ولا ذاك لى — ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا (١)

* * *

سهرت أعين

ثم تقول :

يا حى يا قيوم :

سهرت أعين ونامت عيون — فى أمـور تكون أولا تكون
إن ربًا كفاك بالأمس ماكان — سيكفيك فى غـد مـا يكون (٢)

* * *

هذا . . وإذا قام العبد يصلى صلاة الليل . . نادى الله تعالى ملائكته . . وقال :
يا ملائكتى . . انظروا . . إلى عبدى . .
ترك فراشه من أجلى ؟! أى : ترك نومه وراحته من أجلى ؟!
فيقولون : يارب أنت أعلم .
فيقول : ترك أهله من أجلى ؟! أى : ترك زوجته وقام يصلى من أجلى ؟!
فيقولون : يارب أنت أعلم .
فيقول : أشهدكم أنى قد غفرت له . .
وصدق رسول الله (ﷺ) :
« الشتاء ربيع المؤمن . . يقصر نهاره . . فيزيد صيامه . . ويطول ليله فيزيد قيامه » .

* * *

(١) من شعر رابعة العدوية نظمه طاهر أبو فاشا . (٢) من الشعر المنسوب إلى السيدة زينب (رضى الله عنها) .

الدعوة إلى الله

قال تعالى :

﴿وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ﴾[1].

صدق الله العظيم

(١) سورة غافر – آية ٤١ .

مؤمن آل فرعون

يقول تعالى :

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِيـــنَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لاَّ يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ * وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَن يَقُولَ رَبِّيَ الـلَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلاَّ مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيـكُمْ إِلاَّ سَبِيـلَ الـرَّشَادِ * وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِيـنَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا الـلَّهُ يُرِيـدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِيـنَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ الـلَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ الـلَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * الَّذِيـنَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ الـلَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنـدَ اللَّهِ وَعِنـدَ الَّذِيـنَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ الـلَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ * أَسْبَابَ الـــسَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ الـسَّبِيـلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلاَّ فِي تَبَابٍ * وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيـلَ الـرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الـدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ * مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى الـنَّارِ * تَدْعُونَنِي لأَكْفُرَ بِالـلَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيـزِ الْغَفَّارِ * لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِي الـدُّنْيَا وَلا فِي الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى الـلَّهِ وَأَنَّ

الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ (١).

هذه الآيات التى هى بين أيدينا من سورة غافر . . وسورة غافر مكية . . وهى تهتم بأمور العقيدة كشأن سائر السور المكية ، ويكاد يكون الموضوع البارز فى السورة الكريمة هو المعركة بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ، ولهذا جاء جو السورة مشحونًا بطابع الشدة والعنف ، وكأنه جو معركة رهيبة يكون فيها الطعن والنزال ، ثم تسفر عن مصارع الطغاة ، فإذا بهم حطام وركام .

وكانت بداية السورة الكريمة . . إشادة بصفات الله الحسنى ، وآياته العظمى . . ثم عرضت لمجادلة الكافرين فى آيات الله . . فمع وضوح الحق وسطوعه ، جادل فيه المجادلون ، وكابر فيه المكابرون .

وعرضت السورة لمصارع الغابرين . . وقد أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر فلم يفلت منهم أحد . .

وفى ثنايا هذا الجو الرهيب ، يأتى مشهد حملة العرش فى دعائهم الخاشع المنيب .

وتحدثت السورة عن بعض مشاهد الآخرة وأهوالها ، فإذا بالعباد واقفون للحساب ، بارزون أمام الملك الديان ، تغمرهم رهبة وخشوع ، وإذا القلوب لدى الحناجر ، تكاد لشدة الفزع والهول تنخلع . . وفى هذا الموقف العصيب ، واليوم الرهيب ، يلقى الإنسان جزاءه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

ثم يأتى الحديث بعد ذلك عن قصة الإيمان والطغيان متمثلاً فى دعوة موسى عليه السلام لفرعون الطاغية الجبار ، ففرعون يريد بكبريائه وجبروته . . أن يقضى على موسى وأتباعه خشية أن ينتشر الإيمان بين الأقوام وتبرز فى ثنايا هذه القصة حلقة جديدة لم تعرض فى قصة موسى من قبل ، ألا وهى ظهور رجل مؤمن من آل فرعون ، يخفى إيمانه ، ويصرح بكلمة الحق ، فى تلطف وحذر ، ثم فى صراحة ووضوح . .

(١) سورة غافر آية ٢٦ - ٤٥ .

وتنتهى القصة بهلاك فرعون الطاغية الجبار بالغرق فى البحر مع أعوانه وأنصاره ، وبنجاة الداعية المؤمن وسائر المؤمنين . . ولسان حاله يقول :

لو دامت لغيرك ما انتقلت إليك . . وقد خلعت سواك إذ خلعت عليك . . وهاهى أهلكتك وما أبقت عليك . . لتصبح عبرة لمن جاءوا لديك . .

ويصدق فيه قول الشاعر :

عش ما بدا لك سالمًا	فى ظل شاهقة القصور
يسعى إليك بما اشتهيت	لدى الرواح وفى البكور
فإذا النفوس تزعزعت	فى ظل حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقنًا	ما كنت إلا فى غرور

وسميت سورة «غافر» . . لأن الله تعالى ذكر هذا الوصف الجليل . . الذى هو من أسماء الله الحسنى فى مطلع السورة الكريمة . . غافر الذنب . . وقابل التوب . . وكرر ذكر المغفرة فى دعوة الرجل المؤمن . . وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . .

وتسمى أيضًا بسورة المؤمن لذكر قصة مؤمن آل فرعون . .

﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ * وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ * وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ * يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَن يَنصُرُنَا مِن بَأْسِ اللَّهِ إِن جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴾ .

﴿ قال فرعون ذرونى أقتل موسى ﴾ أى : اتركونى حتى أقتل لكم موسى وليدع ربه أى : وليناد ربه حتى يخلصه منى . . وإنما ذكره على سبيل الاستهزاء . . وكأنه يقول :

لا يهولنكم ما يذكره من ربه فإنه لا حقيقة له وأنا ربكم الأعلى ، وغرضه أن يوهمهم إنما امتنع عن قتله رعاية لقلوب أصحابه . .

قال «أبو حيان» : والظاهر أن فرعون لعنه الله كان قد استيقن أنه نبى وأن ماجاء به آيات باهرة وما هو بسحر ولكن الرجل كان فيه خبث وجبروت وكان قتالاً سفاكًا للدماء لأهون شيء فكيف لايقتل من أحس منه بأنه يثل عرشه ويهدم ملكه ولكنه يخاف إن هم بقتله أن يعاجل بالهلاك ، وكان كلامه للتمويه على قومه وإيهامهم أنهم هم الذين يكفونه ، وما كان يكفه إلا شدة الخوف والفزع . .

﴿ إنى اخاف ان يبدل دينكم ﴾ إنى أخشى أن يغير ما أنتم عليه من عبادتكم لى إلى عبادة ربه . . ﴿ أو أن يظهر فى الأرض الفساد ﴾ أو أن يثير الفتن والقلاقل فى بلدكم ، ويكون بسببه الهرج والمرج : وهذا كما قال المثل : « صار فرعون واعظًا » « وقال موسى إنى عذت بربى وربكم » إنى استجرت بالله واعتصمت به ليحفظنى ﴿ من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب ﴾ : من شر كل جبار عنيد متكبر عن الإيمان بالله ، لا يصدق بالآخرة . . وإنما قال : ﴿ من كل متكبر ﴾ ولم يذكره باسمه ليشمل فرعون وغيره وليكون فيه وصف لغير فرعون بذلك الوصف القبيح . .

وهل هناك أطرف من أن يقول فرعون الضال عن موسى تلك المقالة ؟ أليست هى بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح ؟

أليست هى كلمة الباطل الكالح فى وجه الحق الجميل ؟ أليست هى بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الشبهات فى وجه الإيمان الهادى ؟

إنه منطق واحد يتكرر كلما التقى الحق والباطل ، والإيمان والكفر ، والصلاح والطغيان ، على توال الزمان ، واختلاف المكان ، والقضية قديمة تعرض بين الحين والحين . . وما أكثر الفراعين ، فى كل وقت وحين . .

﴿ وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه ﴾

وكان هذا الرجل المؤمن ابن عم فرعون وكان قبطيًا يخفى إيمانه عن فرعون ، فلما سمع قول الجبار فرعون متوعدًا موسى بالقتل ، أخذت الرجل غضبة لله عز وجل ، ﴿ أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر ﴾ فنصحهم بقوله :

﴿ أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ﴾ استفهام إنكارى للتبكيت عليهم . . أى أتقتلون رجلاً لا ذنب له إلا أن قال «ربى الله» « لا إله إلا الله » .

كـل ذنبـى كـل ذنبـى أننى قـد قلت ربى قلتـهـا من كل قلبى

أنت جاهى أنت حسبى لا إله ســواك ربى إن هـذا كـل ذنبـى

﴿ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ﴾ وقد جاءكم بالمعجزات الظاهرة التى شاهدتموها من عند ربكم . .

﴿ وإن يك كاذبا فعليه كذبه ﴾ أى : وإن كان كاذبًا فى دعـوى الرسـالة فضـرر كـذبه لا يتعداه هو . . ولم يكن ذلك لشك منه فى رسالته وصدقه ، ولكن تلطفًا فى الاستكفاف واستنزالاً عن الأذى . .

﴿ وإن يك صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم ﴾ أى : وإن كان صادقًا فى دعواه أصابكم بعض ما وعدكم به من العذاب . .

﴿ إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب ﴾ أى : لا يوافق للهداية والإيمان من هو مسرف فى الضلال مبالغ فى الكذب على الله . . وقال فى البحر : هذا نوع من أنواع علم البيان يسميه أهل العلم «استدراج المخاطب» وذلك أنه لما رأى فرعون قد عزم على قتل موسى ، وقومه على تكذيبه ، أراد الانتصار له بطريق يخفى عليهم بها أنه متعصب له ، وأنه من أتباعه ، فجاءهم بطريق النصح والملاحظة . . فقال : أتقتلون رجلاً ، ولم يذكره باسمه بل قال : رجلا ليوهمهم أنه لايعرفه ، ثم قال : ﴿ أن يقول ربى الله ﴾ ولم يقل رجلاً مؤمنًا بالله أو هو نبى الله ، إذ لو قال ذلك لعلموا أنه متعصب ، ولم يقبلوا قوله . . ثم أتبعه بقوله : ﴿ وإن يك كاذبا ﴾ فقدم الكذب على الصدق موافقة لرأيهم فيه . ثم تلاه بقوله : ﴿ وإن يك صادقا ﴾ ولم يقل هو صادق . . وكذلك قال ﴿ يصبكم بعض الذى يعدكم ﴾ ولم يقل كل ما يعدكم . ولو قال ذلك لعلموا أنه متعصب له ، وأنه يزعم نبوته ، وأنه يصدقه ، ثم أتبعه بكلام يفهم منه أنه ليس بمصدق له وهو قوله ﴿ إن الله لايهدى من هو مسرف كذاب ﴾ وفيه تعريض بفرعون ، إذ هو غاية الإسراف والكذب على الله إذ ادعى الألوهية والربوبية .

﴿ ياقوم لكم الملك اليوم ظاهرين فى الأرض ﴾ كرر النصح مع التلطف والمعنى : أنتم غالبون عالون على بنى إسرائيل فى أرض مصر قد قهرتموهم واستعبدتموهم اليوم .

﴿ فمن ينصرنا من بأس الله إن جاءنا ﴾ أى : فمن ينقذنا من عذاب الله وينجينا منه إن أنتم قتلتم رسوله . . وإنما قال : ﴿ ينصرنا ﴾ و ﴿ جاءنا ﴾ لأنه كان يظهر لهم أنه منهم وأن الذى ينصحهم به هو مشارك لهم فيه . . وهنا تأخذ فرعون العزة بالإثم ، ويستبد به الجبروت والطغيان . .

﴿ قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى ﴾ أى : ما أشير عليكم برأى سوى ما ذكرته من قتل موسى حسمًا لمادة الفتنة . .

﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ . . أى : وما أهديكم بهذا الرأى إلا طريق الصواب والصلاح .

هذا ولقد أوشك فرعون على الإيمان بدعوة موسى لولا هامان ، ووالله ما أهلك فرعون سوى هامان . . فقد قال فرعون لهامان : . . لقد عرض علىّ موسى الإيمان وأن أظل ملكًا كما أنا . . فما تقول يا هامان؟ . . قال هامان . . ماذا تقول؟ . . أو بعد أن تكون إلهًا تعبد تصير عبدًا يعبد . . وهنا أخذت فرعون العزة بالإثم . . ووالله ما أهلك فرعون سوى هامان . . إن الراعى إذا وفق لشىء فلاختيار بطانته . . فهى واجهته ومرآته . .

فإن من حسن توفيق الله للحاكم . . توفيقه فى اختيار بطانته . .

فإذا أحسن اختيار البطانة . . نجح فى تحمل الأمانة . .

ثم تتوالى الآيات الكريمة متدفقة عذبة سلسة . .

﴿ وَقَالَ الَّذِى آمَنَ يَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الأَحْزَابِ * مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ * وَيَا قَوْمِ إِنِّى أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ * يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ * وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِى شَكٍّ مِّمَّا جَاءَكُم بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ * ﴾ (١) .

(١) سورة غافر الآيات ٣٠ - ٣٤ .

﴿ وقال الذى آمن ياقوم إنى أخاف عليكم مثل يوم الأحزاب ﴾ أخشى عليكم مثل أيام العذاب التى عذب بها المتحزبون على الأنبياء . .

﴿ مثل دأب قوم نوح وعاد وثمود ﴾ هذا تفسير للأحزاب . . أى : مثل عادة قوم نوح وعاد وثمود وما أصابهم من العذاب والدمار بتكذيبهم لرسلهم . .

﴿ والذين من بعدهم ﴾ أى : والمكذبين بعد أولئك كقوم لوط . .

﴿ وما الله يريد ظلما للعباد ﴾ أى : لا يعاقب العباد بدون ذنب . . قال الزمخشرى : أى إن تدميرهم كان عدلاً وقسطًا استوجبوه بأعمالهم . .

﴿ وياقوم إنى أخاف عليكم يوم التناد ﴾ خوفهم بعذاب الآخرة بعد أن خوفهم بعذاب الدنيا ، والمعنى : إنى أخاف عليكم من ذلك اليوم الرهيب . . والموقف العصيب . . يوم الحشر الأكبر ، حيث ينادى المجرمون بالويل والثبور ، ﴿ دعوا هنالك ثبورا ﴾ . . ﴿ يوم تولون مدبرين ﴾ أى : تولون منهزمين من هول عذاب جهنم .

وقد ورد أن الكفار إذا سمعوا زفير النار ولوا مدبرين هاربين ، فلا يأتون قطرًا من الأقطار إلا وجدوا الملائكة يتلقونهم . . يضربون وجوههم فيرجعون إلى مكانهم فتتلقفهم جهنم ﴿ مالكم من الله من عاصم ﴾ أى : ليس لكم مانع ولا دافع يصرف عنكم عذاب الله ﴿ ومن يضلل الله فما له من هاد ﴾ أى : ومن يضلله الله . . فليس له من يهديه إلى طريق النجاة . . ﴿ ولقد جاءكم يوسف من قبل بالبينات ﴾ أى : ووالله لقد جاءكم يوسف بن يعقوب من قبل موسى بالمعجزات الطاهرات . . ﴿ فما زلتم فى شك مما جاءكم به ﴾ أى : فلم تزالوا شاكين فى رسالته . . كافرين بما جاءكم به من عند الله . . والمراد آباؤكم وأصولكم .

﴿ حتى إذا هلك قلتم لن يبعث الله من بعده رسولا ﴾ أى : حتى إذا مات قلتم على سبيل التشهى والتمنى من غير حجة ولا برهان . . لن يأتى أحد يدعى الرسالة . . بعد يوسف . . وليس هذا تصديقًا لرسالة يوسف . . كيف وما زالوا فى شك منه . . وإنما المعنى : لا رسول من عند الله فيبعثه إلى الخلق ، ففيه نفى الرسول ، ونفى بعثته .

﴿ كذلك يضل الله من هو مسرف مرتاب ﴾ أى : مثل هذا الضلال الكبير يضل الله كل مسرف فى العصيان ، شاك فى الدين ، بعد وضوح الحجج والبراهين .

وهذا الطاغية اللعين موجود فى كل عصر وحين . .

وذاك الداعية الأمين موجود فى شتى الأحايين . .

* * *

الحجاج والغلام

وكان الحجاج الثقفى قاتله الله . . يتغذى على جماجم القتلى . . وكانت هوايته أن يأكل وهو يدوس على الجماجم . . وكان ينشد دائمًا بيته الشهير . .

أنا الحجاج فى أرض المنون   متى أضع العمامة تعرفونى

كانت قصوره تمتد عبر البصر . . تحيط بها قصور عالية . . خالية . . وهناك من عباد الله من ينامون فى الطرقات . . وكانت اللحوم تقدم لكلاب الحراسة . . وهناك من الناس من لايجدون قوت يومهم . . فأخذ الناس يتكلمون . . فأصدر قرارًا يمنع النظر إلى القصور . . وكان فى هذا اليوم يمر غلام ممن تربوا على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . فأخذ ينظر إلى القصور . . فزجه الحارس . . وقال له : لا تنظر يا غلام .

قال له الغلام : لماذا ؟

قال : هناك قرار يمنع النظر إلى القصور .

فقال الغلام : لماذا ؟

قال له : لست أدرى . .

قال الغلام : ومن صاحب هذا القرار ؟

قال الحارس : الحجاج . .

قال الغلام : قاتلك الله وقاتل الحجاج . .

قال الحارس : لماذا كل هذا يا غلام ؟!

قال الغلام : لأن هذا قرار ظالم . . ولأن هذا ملك عام ومن حق الجميع .

قال الحارس : وما ذنبى ؟

قال الغلام : لأنك تنفذ قرارًا لا تعرف فحواه . .

قال الحارس : أغرب من هنا وإلا أخذتك للحجاج .

قال الغلام : لن أبرح مكانى حتى تأخذنى للحجاج .

فأخذه للحجاج . . وقال له : هذا الغلام نظر إلى القصور ، ومنعته فلم يقبل . . فقال الحجاج للحارس : أما وجدت أصغر من هذا الغلام لتأتينى به . . وكان الغلام قادمًا من الكُتَّاب . . فنظر الحجاج للغلام وقال له :

من أى مكان جئت يا غلام ؟

قال الغلام : من عند الله .

فقال الحجاج وإلى أين تذهب يا غلام ؟

قال الغلام : إلى الله .

فقال الحجاج : وما الذى معك ياغلام . .

قال الغلام : كتاب الله .

فقال الحجاج : علمت إذن أنك قادم من الكُتَّاب وهز رأسه . . وقال : ماذا علَّمك أستاذك اليوم ياغلام ؟

قال : علمنى قوله تعالى . . بسم الله الرحمن الرحيم : « إذا جاء نصر الله والفتح . . ورأيت الناس يخرجون من دين الله أفواجا » . . فقاطعه الحجاج قائلاً : لعنك الله . . يدخلون فى دين الله أفواجًا . . قال الغلام : بل يخرجون . . أنا أعلم القرآن خيرًا منك . . لقد كانوا يدخلون فى دين الله أفواجًا أيام النبى (ﷺ) والخلفاء الراشدين . . أما فى أيامك هذه فهم يخرجون من دين الله أفواجًا . . فقال له الحجاج :

هذا الكلام كبير عليك . . قاتلك الله أنت صغير . . فقال الغلام :

المرء بأصغريه قلبه ولسانه . . أما إن كان بالسن فهناك من هو أكبر منك سنًا . . وأولى منك بالإمارة . .

فسأله الحجاج : أحفظت القرآن ياغلام ؟

فقال الغلام : معاذ الله يا جاهل أن أحفظ القرآن . . إن الذى يحفظ القرآن هو الواحد الأحد . . أما قرأت قوله تعالى :

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (1) .

قال الحجاج : أجمعت القرآن يا غلام ؟

قال : معاذ الله يا جاهل أن أجمع القرآن . . والذى جمع القرآن هو سيدنا أبو بكر من عند أمنا حفصة . .

فقال له الحجاج وقد استبد به الغيظ كمدًا : أستظهرت القرآن . . ؟

قال الغلام : معاذ الله يا أحمق أن أجعل القرآن وراء ظهرى .

فقال له الحجاج : قاتلك الله إذن . . كيف أسألك . . ؟

فقال الغلام : ياجاهل إذا أردت أن تسألنى فقل : أوعيت القرآن ؟ . .

أما قرأت قوله تعالى : ﴿ وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ ﴾ (2) .

فقال الحجاج : أوعيت القرآن يا غلام ؟

قال الغلام : نعم . .

قال الحجاج : أتقرأ من أوله أم من آخره . .

قال الغلام : من أى جزء شئت .

قال الحجاج : اقرأ ما تشاء . .

وكان الحجاج يبنى قصورًا ويبنى المصانع ويصنع الأسلحة خشية أن تتألب عليه القبائل . . فقال الغلام :

---

(1) سورة الحجر الآية ٩ .

(2) سورة الحاقة الآية ١٢ .

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ * وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ * وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ * فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾(١) .

وهنا أصاب الحجاج الخوف والفزع والهلع والإذلال . . فقال له وهو يلهث : يا غلام . . أنت تعلم ماذا نصنع بالناس . . والله لولا أن يقولوا قتل غلامًا صغيرًا لقتلتك .

فقال الغلام : أموت أو تموتون . .

وعندئذ قام رجل من الحاشية . . وقال للحجاج . . لاداعى لقتله يا حجاج .

فقال الغلام : قاتلك الله من شفيع . . إن كان أجلى قد حضر . . فلن تنفعنى شفاعتك . . من ثم قال الحجاج لحاشيته : لو عاش هذا لكان أنبه أهل زمانه . .

ثم بعثوا بعد ثلاث ليال من يدس له السم فى الطعام فمات . . فكتب فى سجل الأبطال . . غلام فاق الرجال . . وقاوم أهل الضلال . . وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر . .

والحديث يقول : « من رأى منكرًا فغيره بيده فقد برئ . . فإن لم يستطع وغيره بلسانه فقد برئ . . فإن لم يستطع وغيره بقلبه فقد برئ . . وذلك أضعف الإيمان »

إلا أن : تغيير المنكر باليد من شأن الحاكم . . وتغييره باللسان من شأن العالم . . وتغييره بالقلب من شأن العوام . .

ثم تأتى الآيات بعد ذلك سلسة فى دعة . .

﴿ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ وَعِندَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ * وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ * أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ * وَقَالَ الَّذِي آمَنَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ * يَا قَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا مَتَاعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴾(٢) .

---

(١) سورة الشعراء الآيات ١٢٨ - ١٣١ .

(٢) سورة غافر الآيات ٣٥ - ٣٩ .

هذا من تتمة كلام الرجل المؤمن والمعنى :

الذين يجادلون فى شريعة الله بغير حجة ولا برهان جاءهم من عند الله . . ﴿ كبر مقتا عند الله وعند الذين آمنوا ﴾ أى : عظم بغضًا عند الله وعند المؤمنين جدالهم بغير برهان .

وقال فى البحر : عدل الواعظ عن مخاطبتهم إلى الاسم الغائب ، لحسن محاورته لهم واستجلاب قلوبهم ، لئلا يفجأهم بالخطاب ، وفى قوله ﴿ كبر مقتًا ﴾ ضرب من التعجب والاستعظام لجدالهم ، كأنه خارج عن حد أمثاله من الكبائر . .

﴿ كذلك يطبع الله على كل قلب متكبر جبار ﴾ أى : كما ختم على قلوب هؤلاء المجادلين . . كذلك نختم بالضلال على كل قلب متكبر عن الإيمان ، متجبر على العباد ، حتى لايعقل الرشاد ، ولايقبل الحق ، وإنما وصف القلب بالتكبر والجبروت لكونه مركزها ومنبعها ، وهو سلطان الأعضاء ، وأمير البدن ، وملاك الحواس ، فمتى صلح صلحت ، ومتى فسد فسدت .

﴿ وقال فرعون ياهامان ابن لى صرحا ﴾ أى : قال فرعون لوزيره هامان : ابن قصرًا عاليًا ، وبناء شامخًا منيعًا . .

قال القرطبى : لما قال مؤمن آل فرعون ما قال ، وخاف فرعون أن يتمكن كلامه فى قلوب القوم أوهم أنه يمتحن ما جاء به موسى من التوحيد فأمر وزيره هامان ببناء الصرح .

﴿ لعلى أبلغ الأسباب * أسباب السموات ﴾ أى : لعلى أصل وأنتهى إلى طرق السموات وما يؤدى إليها . . كررها للتفخيم والبيان .

﴿ فاطلع إلى إله موسى ﴾ أى : فأنظر إلى إله موسى نظر عيان . .

﴿ وإنى لأظنه كاذبا ﴾ أى : وإنى لأعتقد موسى كاذبًا فى ادعائه أن له إلهًا غيرى ، وبلوغ أسباب السموات غير ممكن ، لكن فرعون أبرزه فى صورة الممكن تمويهًا على سامعيه . .

ولما قال ﴿ فاطلع إلى إله موسى ﴾ : كان ذلك إقرارًا بالإله ولذلك استدرك هذا الإقرار بقوله ﴿ وإنى لأظنه كاذبا ﴾ . .

﴿ وكذلك زين لفرعون سوء عمله ﴾ أى : ومثل هذا التزيين زين لفرعون عمله السيء حتى رآه حسنًا . .

﴿ وصد عن السبيل ﴾ أى : ومنع بالضلال عن الهدى . .

﴿ وما كيد فرعون إلا فى تباب ﴾ أى : وما مكر فرعون وتدبيره إلا فى هلاك وخسار ، خسر ملكه فى الدنيا بالغرق والدمار . . وفى الآخرة بالخلود فى النار .

﴿ وقال الذى آمن ياقوم اتبعون أهدكم سبيل الرشاد ﴾ وكرر مؤمن آل فرعون نصحه لهم بعد تلك المراوغة التى لقيها من فرعون . . ودعا قومه إلى الإيمان بالله الواحد الأحد ، وكشف لهم عن قيمة الحياة الزائلة ، وشوقهم إلى نعيم الحياة الباقية ، وحذرهم من عذاب الله . . والمعنى : امتثلوا يا قوم أمرى ، واسلكوا طريقى أرشدكم إلى طريق النور والنجاة . . طريق الجنة . .

﴿ ياقوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ﴾ أى : ليست هذه الدنيا إلا متاعًا زائلاً لا ثبات لها ولا دوام .

﴿ وإن الآخرة هى دار القرار ﴾ أى : وإن الدار الآخرة هى دار الاستقرار والخلود ، التى لا زوال لها ، ولا انتقال منها . . فإما خلود فى النعيم ، أو خلود فى الجحيم . . ومراده بالدار الآخرة الجنة أو النار لأنهما لا يفنيان . .

وعلينا نحن أن نختار . . مابين الجنة والنار . . مابين النار وزفرتها . . والجنة ذات الأنهار . . وهذا الرجل المؤمن ينبغى أن يكون فينا فى داخلنا . . فى داخل كل منا . . داعيًا إلى الخير ومبشرًا به . . يصدع بالحق ولا تأخذه فى الله لومة لائم . .

وهذا الرجل المؤمن ينبغى أن يكون فى كل وقت وحين . . شمعة تحترق لتضيء للآخرين ، وشمسًا مشرقة للعالمين . . وقمرًا مضيئًا للسالكين . .

وهذا الرجل المؤمن ينبغى أن يكون قدوة للداعين إلى الله رب العالمين . . بالحكمة والموعظة الحسنة . . فالداعية عليه أن يكون رحيمًا رءوفًا . . بمن يأخذ بأيديهم إلى الحق ، حريصًا على هدايتهم . . كالطبيب أمام مرضاه . . حريصًا على شفائهم . . فهؤلاء أطباء أجسام . . وأنتم أطباء الأرواح . . أطباء القلوب . . فبكم يغفر الله الذنوب ، وبكم يستر

الله العيوب ، ويتوب الله على من يتوب . . هذا هو الملحظ الأول . . الملحظ الثانى أن يحب لله . . وأن يكره لله . . وأن يرضى لله . . وأن يغضب لله . . فقد كان رسول الله (ﷺ) لايغضب قط إلا إذا انتهكت حرمة من حرمات الله . . وما انتقم لنفسه قط .

غضبة فى الحق

وإذا غضبت فإنما هى غضبة　　فى الحق لاضغن ولاشحناء

وتمد حلمك للسفيه مداريًا　　حتى يضيق بحلمك السفهاء

وأما الذى لايهمه أمر المسلمين فليس منهم . . فقد ورد أن الله تعالى أمر جبريل (عليه السلام) أن يهلك قرية ظالمة ، وأن يجعل عاليها سافلها على ريشة من جناحه . . فقال جبريل : يارب إن فيها فلانًا العابد الصالح . . فقال الله : ياجبريل ابدأ به . . فقال جبريل : لماذا يارب : قال الله : لأنه لم يتغير لونه حين انتهكت حرماتى . .

﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ (1) .

أما السلبيون الذين يعيشون على هامش الحياة . . ويرفعون شعار : وانا مالى ، خدنى على جناحك . . كله بتاع ربنا ، خليك فى حالك . . أنا مالى ومالك . . هؤلاء لا يستحقون نعمة الحياة ، ولا نسمة الهواء . . ولا قطرة الماء . .

إن الكلمة أمانة . . وخير الأمانة . . ماكان لله سبحانه . . والمؤمن ريحانة . . قوله وعمله ، قلبه ولسانه . . سره وإعلانه . .

ولقد جلس الرسول المعصوم (ﷺ) بين أصحابه كالقمر بين النجوم . . فى جلسة نورانية أراد أن يخرج بها هؤلاء الأصحاب . . إلى معارج الأسرار . . ومدارج الأنوار . . فنظر إلى صاحبه أبى بكر . . وقال :

يا أبا بكر أتحب من الدنيا شيئًا ؟ .

قال : نعم يا حبيبى يارسول الله . . أحب لأجلك ثلاثًا . .

---

(1) سورة الأنفال الآية ٢٥ .

قال : وما هى يا أبا بكر . .

قال : جلوسى بين يديك . . ومداومة نظرى إليك . . وإنفاق مالى عليك .

ثم نظر (ﷺ) إلى صاحبه عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وقال : وأنت يا عمر أتحب من الدنيا شيئًا ؟

قال عمر : نعم ياحبيبى يارسول الله ، أحب لأجلك ثلاثًا أيضًا . .

قال : وماهى ياعمر ؟ .

قال عمر : أمر بمعروف ولو كان سرًا ، ونهى عن منكر ولو كان جهرًا ، وقول الحق ولو كان مرًا . .

ثم نظر (ﷺ) إلى صاحبه عثمان وقال له : وأنت يا عثمان أتحب من الدنيا شيئًا ؟ .

قال : نعم يا حبيبى يا رسول الله . . أحب لأجلك ثلاثًا أيضًا . .

قال : وما هى يا عثمان ؟ . .

قال عثمان : إفشاء السلام . . وإطعام الطعام . . وركعات بالليل والناس نيام .

ثم نظر (ﷺ) إلى صاحبه على (كرم الله وجهه) وقال له : وأنت يا على أتحب من الدنيا شيئًا ؟ .

قال : نعم يا حبيبى يارسول الله أحب لأجلك ثلاثًا أيضًا . .

قال : وما هى يا على ؟ .

قال على : إكرام الضيف . . والصيام فى الصيف . . وضرب أعناق المشركين بالسيف .

* * *

وأفوض أمرى إلى الله

ثم تأتى الآيات الكريمة . . مواصلة سردها لحديث مؤمن آل فرعون . .

﴿ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ * وَيَا قَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ *

تَدْعُونَنِى لأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِى بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ * لا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِى إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دَعْوَةٌ فِى الدُّنْيَا وَلا فِى الآخِرَةِ وَأَنَّ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ * فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِى إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ * فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾[1] .

﴿ من عمل سيئة فلا يجزى إلا مثلها ﴾ أى : من عمل فى هذه الدنيا سيئة . . فلا يعاقب فى الآخرة إلا بمقدارها . . دون زيادة رحمة منه تعالى بالعباد . .

﴿ ومن عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن ﴾ أى : ومن فعل فى الدنيا العمل الصالح سواء كان ذكرًا أو أنثى . . بشرط الإيمان . .

﴿ فأولئك يدخلون الجنة يرزقون فيها بغير حساب ﴾ أى : فأولئك المحسنون يدخلون جنات النعيم . . وينالون أجرهم بغير حساب . . أضعافًا مضاعفة . . فضلاً من الله وكرمًا . فقد اقتضى فضله تعالى أن تتضاعف الحسنات دون السيئات . . وقد ورد أن الله يقول للملائكة : يا ملائكتى : إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها . . فإن عملها فاكتبوها سيئة واحدة . . وإذا هم عبدى بحسنة فاكتبوها حسنة . . فإن فعلها فاكتبوها عشرا .

﴿ ويا قوم مالى أدعوكم إلى النجاة وتدعوننى إلى النار ﴾ أى : مالى أدعوكم إلى الإيمان الموصل إلى الجنان . . وتدعوننى إلى الكفر الموصل إلى النيران . . مالى أدعوكم إلى النعيم وتدعوننى إلى الجحيم . . مالى أدعوكم إلى الجنة وتدعوننى إلى النار . ؟!

والاستفهام هنا للتعجب . . كأنه يقول :

أنا أتعجب من حالكم هذه . . أدعوكم إلى النجاة والخير . . وتدعوننى إلى النار والشر ؟! ثم وضح ذلك بقوله :

﴿ تدعوننى لأكفر بالله وأشرك به ماليس لى به علم ﴾ أى : تدعوننى للكفر بالله وأن أعبد ماليس لى علم بربوبيته ، وما ليس بإله كفرعون . .

﴿ وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار ﴾ أى : وأنا أدعوكم إلى عبادة الله الواحد الأحد . .

---

(1) سورة غافر الآيات ٤٠ - ٤٥ .

العزيز الذى لا يغلب ، الغفار لذنوب العباد . . أى : كيف أدعوكم إلى التوحيد . . وتدعونني إلى الإشراك . . كيف أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى الهلاك . . ؟!

﴿ لاجرم أنما تدعوننى إليه ﴾ أى : حقًا إنما تدعوننى إلى عبادته . .

﴿ ليس له دعوة فى الدنيا * ولا فى الآخرة ﴾ أى : لا يصلح أن يعبد . . لأنه لايستجيب لنداء داعيه ، ولا يقدر على تفريج كربته . . لا فى الدنيا ولا فى الآخرة . .

﴿ وأن مردنا إلى الله ﴾ أى : وأن مرجعنا إلى الله وحده فيجازى كلا بعمله .

﴿ وأن المسرفين هم أصحاب النار ﴾أى : وأن المسرفين فى الضلال والطغيان سيخلدون فى النار . .

﴿ فستذكرون ما أقول لكم ﴾ أى : فستذكرون صدق كلامى عندما يحل بكم العذاب . . وهو تهديد ووعيد . .

﴿ وأفوض أمرى إلى الله ﴾ أى : أتوكل عليه وأسلم أمرى إليه . . وهذا يدل على أنهم هددوه بالقتل .

لا تدبر لك أمرًا فأولو التدبير هلكى
فوض الأمر إلينا نحن أولى بك منكا

﴿ إن الله بصير بالعباد ﴾ أى : مطلع على أعمالهم . . لا تخفى عليه خافية من أحوالهم . .

﴿ فوقاه الله سيئات ما مكروا ﴾أى : فنجاه الله من شدائد مكرهم ، ومن أنواع العذاب الذى أرادوا إلحاقه به .

﴿ وحاق بآل فرعون سوء العذاب ﴾ أى : ونزل بفرعون وجماعته أسوأ العذاب . . وهو الغرق فى الدنيا . . والحرق فى الآخرة . . فقد غرقوا واحترقوا . .

﴿ مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَارًا فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ أَنصَارًا ﴾[1] . .

* * *

(١) سورة نوح الآية ٢٥ .

أربع لأربع

ومن أجمل ما قيل فى هذا ما ورد أن جعفر الصادق (رضي الله عنه) قال : عجبت لمن ابتلى بأربع كيف يغفل عن أربع : عجبت لمن ابتلى بالخوف كيف يغفل عن قول الله تعالى : ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١) .

ولقد سمعت الله بأذنى يقول بعقبها : ﴿ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (٢) .

وعجبت لمن ابتلى بمكر الناس كيف يغفل عن قول الله تعالى : ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ (٣) .

ولقد سمعت الله بأذنى يقول بعقبها : ﴿ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴾ (٤) .

وعجبت لمن ابتلى بالضر كيف يغفل عن قول الله تعالى : ﴿ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ (٥) .

ولقد سمعت الله بأذنى يقول بعقبها : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ (٦) .

وعجبت لمن ابتلى بالغم كيف يغفل عن قول الله تعالى : ﴿ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴾ (٧) .

ولقد سمعت الله بأذنى يقول بعقبها : ﴿ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٨) .

هذا هو الملحظ الأول . . أما الملحظ الثانى : هو دعوة الرجل المؤمن . . ونصحه الأمين لقومه فى حب وتؤدة ولين . . فالدين النصيحة . . وما استحقت أمة محمد أن تكون خير أمة أخرجت للناس إلا لكونها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر . . وتؤمن بالله وذلك قوله تعالى : ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (٩) .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٧٣ . (٢) سورة آل عمران الآية ١٧٤ . (٣) سورة غافر الآية ٤٤ .
(٤) سورة غافر الآية ٤٥ . (٥) سورة الأنبياء الآية ٨٣ . (٦) سورة الأنبياء الآية ٨٤ .
(٧) سورة الأنبياء الآية ٨٧ . (٨) سورة الأنبياء الآية ٨٨ . (٩) سورة آل عمران الآية ١١٠ .

الدنيا هموم

وكان الشيخ لاقط النوى (رحمه الله) . . يلتقط نوى البلح ويطحنه ويأكله . . حتى لا يسأل الناس شيئًا . . يروى أنه أمر هارون الرشيد بالمعروف ونهاه عن المنكر . . فأراد هارون الرشيد أن يستعطفه ويسكته . . فأرسل له صرة مليئة بالذهب مع خادمه ليأسره إليه ويسكته . . فقال الشيخ لاقط النوى للخادم فى غضب :

ارجع لسيدك . . فأمره أن يرد هذا المال إلى من سلبه منهم . . وأخذ يلتقط نوى البلح ويجففه ويطحنه . . حتى إذا جاع تناوله . . وأرسل إلى هارون الرشيد رسالة . . جاء فيها :

أرى الدنيا لمن هى فى يديه ... همومًا كلما كثرت لديه
تهين المكرمين لها بشر ... وتكرم كل من هانت عليه
إذا استغنيت عن شيء فدعه ... وخذ ما أنت محتاج إليه

* * *

المؤمن يرى بنور الله

قال رسول الله (ﷺ) : « إن لله عبادًا ما هم بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة بمكانهم من الله . . قلنا يارسول الله تخبرنا من هم . . وما أعمالهم فلعلنا نحبهم ؟

قال (ﷺ) : هم قوم تحابوا بروح الله على غير أرحام بينهم ، ولا أموال يتعاطونها . . فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى منابر من نور ، لايخافون إذا خاف الناس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس . . ثم تلا قوله تعالى : ﴿ ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، الذين آمنوا وكانوا يتقون لهم البشرى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم ﴾ .

ويقول (ﷺ) : « الأرواح جنود مجندة . . ما تعارف منها ائتلف . . وما تناكر منها اختلف . . » .

المؤمن يرى بنور الله

ويقول : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله » .

ويروى عن على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) . . أنه قال : بينما نحن فى خلافة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) . . إذ رأيت فى المنام أننى أصلى الفجر خلف رسول الله (ﷺ) . فلما فرغت من الصلاة خلف رسول الله (ﷺ) . . انصرفت إلى باب المسجد . . فإذا امرأة واقفة بالباب . . ومعها طبق به تمر . . فقالت : يا على خذ هذا الطبق . . وأعطه رسول الله (ﷺ) . . ليوزعه على أصحابه . . فأخذت منها الطبق ووضعته بين يدى المصطفى (ﷺ) . . فمد يده الشريفة فأخذ من الطبق تمرة فوضعها فى فمى . . فقلت يارسول الله . . ما أحلاها زدنى تمرة أخرى . . ولكننى استيقظت على أذان الفجر قبل أن يزيدنى رسول الله (ﷺ) ، والرؤيا كلما اقتربت من الفجر كلما كانت صادقة . . وذهبت إلى مسجد الرسول (ﷺ) فرأيت عمر يصلى بالناس إمامًا . . فلما فرغت من الصلاة . . انصرفت . . فإذا بباب المسجد امرأة واقفة ومعها طبق به تمر . . فقالت : ياعلى خذ هذا الطبق من التمر وأعطه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ليوزع منه على أصحاب الرسول (ﷺ) فأخذت الطبق منها ووضعته بين يدى عمر . . فمد يده وأعطانى تمرة فى فمى . . فلما أحسست بحلو طعمها . . قلت زدنى تمرة أخرى يا أمير المؤمنين . . فقال عمر (رضي الله عنه) : لو زادك رسول الله لزدناك . .

فقلب على بن أبى طالب يديه عجبًا . . واقترب من عمر ينظر إليه ، قائلاً : ماذا تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر (رضي الله عنه) : لو زادك رسول الله بالأمس لزدناك . . فقلت : ما هذا يا أمير المؤمنين ؟

أغيب اطلعت عليه ؟ أم هى رؤيا رأيتها . . قال عمر : والله ما هو غيب ولا رؤيا . . ولكنها القلوب يا على . . فالمؤمن إذا أخلص قلبه لله . . أصبح يرى بنور الله . .

تلك هى القلوب التى عاشت لله وبالله وفى الله ، وليس بها سواه . .

وقد جاء فى الحديث القدسى عن رب العزة :

« ما وسعتنى أرضى ولا سمائى . . ولكن وسعنى قلب عبدى المؤمن » هذا القلب الصغير وهذا المخلوق العجيب ، الذى هو أمير البدن ، وملاك الحواس . . والذى إن صلح صلح الجسد كله . . وإن فسد فسد الجسد كله . . يجب ألا نحمله إلا الحب . . والحب فقط . . لأنه بالحب يمتلك الإنسان الدنيا والآخرة . . فقد سئل الرسول (ﷺ) بأى شىء بلغت هذه الدرجة عند ربك وهى درجة الحبيب ؟

فقال (ﷺ) :

لأنى لم أبت ليلة وفى قلبى مثقال ذرة حقد لأحد . .

اللهم طهر قلوبنا من الحقد

وطهر صدورنا من البغضاء

وطهر عيوننا من الخيانة

واجعلنا أهلاً لحمل الأمانة

* * *

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

قال تعالى :

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾[1].

صدق الله العظيم

---

(١) سورة آل عمران – آية ١١٠ .

فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر

يقول تعالى :

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (١) .

ويقول الهادى البشير (ﷺ) : « والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر . . أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عذابًا منه . . ثم تدعونه فلا يستجيب لكم »(٢) .

ويقول (ﷺ) :

(*) « الدين النصيحة . . الدين النصيحة . . الدين النصيحة . . قلنا : لمن يارسول الله ؟ قال : لله ، ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » (٣) .

* * *

ابدأ بنفسك أولا

هذا . . ولقد جاء رجل إلى ابن عباس (رضي الله عنه) وقال له : يا ابن عباس أريد أن آمر بالمعروف وأنْهَى عن المنكر . . فعظنى ! !

فقال ابن عباس (رضي الله عنه) : وهل أعددت نفسك لهذا ؟ .

فقال : وكيف أعد نفسى لهذا ؟

قال ابن عباس (رضي الله عنه) : بثلاثة أمور حتى لا تفتضح أمام الله تعالى .

قال : وما هذه الثلاث يابن عباس ؟!

---

(١) سورة آل عمران آية ١١٠ .
(٢) رواه الترمذى عن حذيفة (رضي الله عنه) .
(٣) متفق عليه . من حديث تميم الدارى (رضي الله عنه) .

قال (رضي الله عنه) : أولها : قوله تعالى : ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾(١) . . أأحكمت هذه الآية ؟! .

قال : لا . . وما الثانية يا ابن عباس ؟! .

قال (رضي الله عنه) : قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ﴾(٢) . . أأحكمت هذه الآية ؟! .

قال : لا . . وما الثالثة يا ابن عباس ؟! .

قال (رضي الله عنه) : قوله تعالى على لسان شعيب عليه السلام لقومه : ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾(٣) . . أأحكمت هذه الآية ؟! .

قال : لا . .

قال ابن عباس (رضي الله عنه) : إذن فابدأ بنفسك أولاً . . حتى يطابق القول العمل . . ولا يخالف القول ما تدعو الناس إليه . .

فليس من المعقول أن تأمر الناس بالصدق وأنت كاذب . . أو أن تأمر الناس بالأمانة وأنت خائن . . إلخ . .

* * *

(١) سورة البقرة الآية ٤٤ .
(٢) سورة الصف الآيتان ٢ ، ٣ .
(٣) سورة هود الآية ٨٨ .

بالقلب واللسان معًا

ولا يكون المرء مؤمنًا . . حتى يكون قلبه ولسانه سواء . . لقوله (ﷺ) : « إن الرجل لايكون مؤمنًا . . حتى يكون قلبه مع لسانه سواء . . ويكون لسانه مع قلبه سواء . . ولا يخالف قوله عمله . . ويأمن جاره بوائقه »[1].

هذا . . واحذر أن تقول ما لا تفعل . . حتى لا تضىء للناس وتظلم على نفسك . . أو أن تضىء للناس . . وتحرق نفسك . . لقوله (ﷺ) : « مثل الذى يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضىء للناس ويحرق نفسه »[2].

فما أهلك الذين من قبلنا إلا أنهم أمروا الناس بما لم يفعلوا . . وقالوا لهم ما لم يعملوا . . فأخذوا بأيديهم إلى الجنة ودخلوا النار . فقد جاء فى الحديث الشريف : « إن أناسًا من أهل الجنة ينطلقون إلى أناس من أهل النار . . فيقولون : بم دخلتم النار ؟ فوالله ما دخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم . . فيقولون : إنا كنا نقول ولا نفعل »[3] . .

ومثل هؤلاء . . مثل الذين يحملون العلم ولا يعملون به . . ويحملون القرآن ولا يعملون به . . ويحملون الدين ولا يعملون به . . كمثل الدواب التى تحمل الكتب على ظهرها . . ولا تدرى ما فى باطنها . . وذلك قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[4].

وأولئك هم وقود النار . . كما جاء فى الحديث : يؤتى بالرجل يوم القيامة . . فيلقى فى النار . . فتندلق أقتاب بطنه . . فيدور بها كما يدور الحمار فى الرحى . . فيجتمع إليه أهل النار . . فيقولون : يافلان ! مالك ؟ ألم تكن تأمر بالمعروف . . وتنهى عن المنكر ؟

(١) رواه الأصبهانى . . عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) .
(٢) رواه الطبرانى فى الكبير عن الوليد بن عقبة (رضي الله عنه) .
(٣) رواه الطبرانى . . عن ابن تميمة (رضي الله عنه) .
(٤) سورة الجمعة الآية ٥ .

فيقول : بلى كنت آمر بالمعروف . . ولا آتيه . . وأنهى عن المنكر وآتيه [١] . .

* * *

الجزاء من جنس العمل

وقد رأى رسول الله (ﷺ) ليلة أسرى به صوراً لهؤلاء الذين يقولون ما لا يفعلون . . ويظهرون غير ما يبطنون . . فيقول (ﷺ) : « رأيت ليلة أسرى بى رجالاً تقرض شفاهم بمقاريض من النار . . فقلت : من هؤلاء يا جبريل ؟

قال : الخطباء من أمتك . . الذين يأمرون الناس بالبر . . وينسون أنفسهم . . وهم يتلون الكتاب . . أفلا يعقلون . . » [٢].

هؤلاء جزاؤهم من جنس أعمالهم . . يوم القيامة . . حيث يأمر الله بهم إلى مشارف الجنة . . حتى إذا رأوا نعيمها . . وجمال قصورها . . وبريق نورها . . وسمعوا حفيف أشجارها . . وخرير غديرها . . وغناء حورها . . أمر الله بهم إلى النار . . فيقولون : يارب : لماذا فعلت بنا هكذا . . ولماذا لم تدخلنا النار دون أن نرى الجنة . . فكان أهون علينا ؟ فيقول الله تعالى :

عمداً أردت . . وقصداً فعلت . .

إنكم كنتم تظهرون للناس الحسن . . وتضمرون القبيح . .

وتأمرون الناس بالبر . . وتنسون أنفسكم . .

وتأمرون الناس بالمعروف . . وتأتون المنكر . .

وتدعون الناس إلى الخير . . وتفعلون الشر . .

* * *

(١) متفق عليه من حديث أسامة بن زيد (رضي الله عنه) .

(٢) رواه ابن حبان فى صحيحه .

حتى لا يخالف قولى عملى

لهذا . . فاحذر أن تخالف ما تقول . . أو تأمر بما لا تعمل . . فقد سئل الحسين (ﷺ) ذات يوم أن يعظ الناس فى فضل عتق الرقاب . . فقال لهم : أفعل إن شاء الله . . وانتظر الناس أن يخطبهم خطبة فى عتق الرقاب أسبوعًا وأسبوعين . . وشهرًا وشهرين . . فلم يفعل . . فسألوه فى ذلك مرة أخرى . . فقال لهم : أفعل إن شاء الله . . ثم وعظهم بعد ذلك . . فسألوه : لماذا تأخرت علينا ؟ . قال لهم : كنت أنتظر حتى أشترى رقبة فأعتقها . . حتى لا يخالف قولى عملى . . إلى هذه الدرجة . . كانوا يخافون أن يقولوا ما لا يفعلون . .

فإذا كان سرك مثل علانيتك فذلك هو العدل . .

وإذا كان سرك شرًا من علانيتك فذلك هو الظلم . .

وإذا كان سرك خيرًا من علانيتك فذلك هو العفو . .

فاحرص أن تطابق علانيتك . . سرك . . حتى تكون عادلاً مع نفسك صادقًا مع الله . .

* * *

فى سفينة واحدة

هذا . . واحذر أن ترى منكرًا . . ولا تغيره باليد أو اللسان أو القلب . . وذلك أضعف الإيمان . .

واحذر أن تقول مالى وهذا . . فإن العذاب يشمل . . والعقاب يعم . . فقد قال أبو بكر (ﷺ) : يا أيها الناس إنكم تقرءون هذه الآية ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ﴾ وإنى سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : « إن الناس إذا رأوا الظالم . . فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده »[1].

(١) رواه أبو داود والترمذى .

فنحن جميعًا فى سفينة واحدة فى بحر الحياة . . إما أن ننجو جميعًا أو نهلك جميعًا . . فلا يقولن أحد : مالى وهذا . . وما شأنى وذاك . . كلا . . وإنما كلنا سواء فى تلك الحياة . . ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾ [1] .

ومن هنا يحذرك رسول الله (ﷺ) . . قائلاً : « مثل القائم فى حدود الله والواقع فيها . . كمثل قوم استهموا على سفينة . . فصار بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها . . فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم . . فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا . . ولم نؤذ من فوقنا . . فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا . . وإن أخذوا على أيديهم نجوا . . ونجوا جميعًا [2] .

وهذا الحديث تحفة أدبية رائعة . . يدلنا على أن المسئولية شاملة . . والأمر عام . . وأنه ما لم يضرب الجادون على أيدى العابثين . . حلَّ الدمار بهم جميعًا . .

ولا غرو فى هذا . . فقد أعلنها المصطفى (ﷺ) وحذر منها حيث قال : ويل للعرب . . من شر قد اقترب . .

فقالت زينب (رضى الله عنها) : أنهلك وفينا الصالحون يا رسول الله ؟

قال : نعم إذا كثر الخبث [3] . .

من جوامع الكلم . . يقول المصطفى (ﷺ) : « الإسلام ثمانية أسهم : الإسلام سهم والصلاة سهم ، والزكاة سهم ، والصوم سهم ، وحج البيت سهم ، والأمر بالمعروف سهم ، والنهى عن المنكر سهم ، والجهاد فى سبيل الله سهم ، وقد خاب من لا سهم له » [4] .

---

(١) سورة الأنفال الآية ٢٥ .

(٢) رواه البخارى والترمذى .

(٣) متفق عليه . . عن زينب بنت جحش (رضى الله عنها) مختصرًا .

(٤) رواه البزار من حديث حذيفة (رضي الله عنه) .

(*) « أوصانى خليلى (ﷺ) . . ألا أخـاف فى الله لومة لائم . . وأن أقول الحق ولو كان مراً »[1] .

(*) « كنا نسمع أن الرجل يتعلق بالرجل يوم القيامة . . وهو لايعرفه . . يطلب حقه منه . . فيقول له : مالك إلىّ . . وما بينى وبينك معرفة . . فيقول : كنت ترانى على الخطأ وعلى المنكر ولا تنهانى »[2] .

(*) لايحقرن أحدكم نفسه . . قالوا : يارسول الله : وكيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال : كلمة حق يكتمها . . فيقول الله عز وجل يوم القيامة :

ما منعك أن تقول الحق ؟

فيقول : خشية الناس . .

فيقول عز وجل : الله أحق أن تخشاه[3] .

* * *

(١) رواه ابن حبان فى صحيحه . . عن أبى ذر (رضي الله عنه) .
(٢) من كلام أبى هريرة (رضي الله عنه) .
(٣) رواه ابن ماجه .

اختيار الأصحاب

قال تعالى :

﴿ الأخلاَّءُ يومئذٍ بعضُهُمْ لِبَعْضٍ عدُوٌّ إلاَّ المُتَّقِين ﴾[1] .

صدق الله العظيم

(١) سورة الزخرف - آية ٦٧

حسن اختيار الأصحاب

يقول تعالى :

﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [1] .

ويقول رسول الله (ﷺ) :

(*) « المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل . . » [2] .

(*) « اصحب من إذا نسيت ذكرك . . وإذا ذكرت أعانك . . » [3] .

(*) « لا تصاحب إلا مؤمنًا . . ولا يأكل طعامك إلا تقى . . » [4] .

ويقول الشاعر الحكيم :

احذر عدوك مرة ... واحذر صديقك ألف مرة

فلربما انقلب الصديق ... فكان أدرى بالمضرة

ويقول الإمام على (كرم الله وجهه) :

إن أخاك الحق من كان معك ... ومن يضر نفسه لينفعكْ

ومن إذا ريب الزمان صدّعك ... شتت فيك شمله ليجمعكْ

ويقول الحكيم العربى :

إن القرين إلى المقارن ينسب !!

* * *

(١) سورة الزخرف آية ٦٧ .
(٢) رواه أحمد .
(٣) رواه الطبرانى .
(٤) رواه ابن ماجه .

على دين خليله

إذا كان ذلك كذلك . . كان لزامًا على المرء : أن يتخير أصدقاءه بحذر شديد . . لأن المرء على دين خـليله . . وهو ينتسب إليه . . فمن اختار صديقًا صادقًا . . فقد اختار لنفســه الخير . . حيث أن الصادق يصدقه فيما يرى . . ويخلص إليه فيما يحب . . فالمؤمن مرآة أخيه . .

أما إذا اختار صديقًا كاذبًا . . كذب عليه فيما يحب وأخلص إليه فيما يكره . . وكان صديق سوء . . ونذير شؤم . . والصديق الحق هو الذى يعينك على الطاعة . . ويدفعك إليها . . ويصدك عن المعصية . . ويبصرك بعيوبك . . حتى تنشغل بها . . عن عيوب غيرك . . ويأخذ بيديك إلى الخير . . وينأى بك عن الشر . .

هـذا . . واعلم أن الصديق الذى تختاره لنفسك . . أصبح لك خيره . . وعليك شــره . . وصار ينسب إليك فعله . . إن خيرًا فخير . . وإن شرًا فشر . . فكان لزامًا عليك . . أن تحسن الاختيار . . حتى لاينسب إليك شىء لم تفعله . .

هذا . . واعلم أن الصديق . . يعرف عنك أكثر مما يعرف غيره . . فهو أقدر الناس على ضرك إن أراد . . لأنه يعرف مواطن ضعفك وخوفك . . من كثرة مصاحبتك له . . فكان لزامًا عليك أن تحسن الاختيار مرة ثانية . . حتى لا تقع فريسة لصديق خائن .

ولما كان المرء على دين خليله . . كان لزامًا عليك أن تحسن الاختيار مرة ثالثة . . وأن تختار من يأخذ بيديك إلى الجنة . . لا من يأخذ بيديك إلى النار . .

و﴿ الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) .

ويقولون : ماسمى الصديق صديقًا إلا لصدقه صاحبه . . فهو يصدقه القول . . ويصدقه النصح . . ويصدقه الفعل . . فلا يزخرف له الحقيقة . . فمن زخرف الحقيقة زيفها . . ومن زين الحقيقة حرفها . . ولا يزين له الباطل . . فمن زين الباطل جبان . . ولا يزين الباطل إلا شيطان . .

---

(١) سورة الزخرف الآية ٦٧ .

من علامات الساعة

هذا . . واعلم أن من علامات الساعة :

(١) « أن تلد الأمة ربتها » .

(٢) « وأن يتطاول الحفاة العراة فى البنيان » .

(٣) « وأن يكون لكل رجل خمسون امرأة » .

(٤) « وأن يطيع الرجل صديقه . . ويعق أباه » .

(٥) « وأن يطيع الرجل امرأته . . ويعق أمه » .

(٦) « وأن ترتفع الأصوات فى المساجد »[1] .

وجاء فى الأثر :

* ألف صديق قليل . . عدو واحد كثير .
* قيمة المرء فى معارفه .
* رب أخ لك لم تلده أمك .

ويقول الإمام الشافعى (رحمه الله) :

وليس كثيراً ألف خل لواحد   وإن عدواً واحداً لكثير

هذا . . واحذر صديق المال . .

الذى إن زاد مالك صاحبك . . وإن قل مالك عاداك . .

يقول الشاعر الحكيم :

إن قل مالى فلا أحد يصاحبنى   وإن زاد مالى فكل الناس خلانى

فكم من عدو لأجل المال صاحبنى   وكم من صديق لأجل المال عادانى

فهذا عدو وليس صديقًا . .

---

(١) رواه الحاكم وغيره .

فالصديق هو الذى يحفظ صديقه فى السر والعلن . . والشدة والرخاء . . والغنى والفقر . . وإذا رأى حسنة أحصاها . . وإذا رأى سيئة أخفاها . . وإذا رأى خيراً جلبه . . وإذا رأى شراً دفعه . .

واحذر أن تكون فيك واحدة من هؤلاء الأربع حتى لاتكون منافقًا خالصًا .

فهناك : أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا . . ومن كانت فيه واحدة منهن . . كانت فيه خصلة من نفاق حتى يدعها :

(*) من إذا حدث كذب .

(*) وإذا وعد أخلف .

(*) وإذا عاهد غدر .

(*) وإذا خاصم فجر [1].

* * *

(١) رواه البزار .



وصدق الله ورسوله

قال تعالى :

﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾[1] .

صدق الله العظيم

(1) سورة الأحزاب ، آية ٢٢ .

آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم

يقول تعالى :

﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ [1] .

ويقول الهادى البشير (ﷺ) : « لا فضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أسود ، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » [2] .

إنها الطبيبة الأمريكية المجتهدة . . والدكتورة الباحثة المباركة . . التى عرفت الحق فاتبعته دون خوف أو رياء . . لقد ظلت تبحث فى معملها طوال أعوام عدة . . وكان بحثها الفريد فى لعاب الكلب . . وأثره على البيئة والمجتمع وبعد بحث طويل . . وتحليل مُضن . . بأجهزة متقدمة . . بل بأحدث ما وصل إليه العلم اليوم من تكنولوجيا متطورة . . فى أقوى دولة فى العالم . .

بعد هذا البحث . . وبعد طول عناء . توصلت هذه الدكتورة المفكرة إلى أن لعاب الكلب يحوى ميكروبًا خطيرًا جدًا . . ضارًا بحياة الإنسان . . وأن هذا الميكروب إذا مس الإنسان . . فإنه يعلق به . . ولا يزول عنه إلا بغسله ست مرات على الأقل بالماء . . ثم لايزول نهائيًا إلا إذا تطهر بالتراب مرة أخرى . . فيكون عدد الغسلات سبع مرات إحداهن بالتراب . .

خرجت هذه الطبيبة المجتهدة على الدنيا بهذا الكشف العظيم . . وكلها نشوة وفخر بهذا . . ولا عجب فى هذا . . فهذا حقها . . ولم تكد فرحتها تتم بهذا الاكتشاف . . حتى أخبرها أحد الأطباء المسلمين . . بأن هذا الاكتشاف الذى اكتشفته هى فى القرن العشرين مع هذا التقدم العلمى الهائل . . قد جاء به نبى أمى اسمه محمد بن عبد الله (ﷺ) فى شبه الجزيرة العربية . . منذ ألف وأربعمائه عام من الزمان فى مجتمع بدوى لايملك إلا النبال والسهام .

---

(١) سورة فصلت ، آية ٥٣ . (٢) رواه البيهقى .

فما كادت هذه الطبيبة الملهمة . . أن تسمع بهذا الكلام . . حتى أخذتها الدهشة . . وذهبت إلى بعض سفارات الدول الإسلامية . فأكدوا لها ذلك . . بل وأخرجوا لها من المخطوطات القديمة ما يؤكد صدق ما توصلت إليه . . وتصديقًا لما جاء به محمد (ﷺ) من عند ربه . . فدمعت عيناها . . وارتعدت فرائصها . . وارتجف قلبها . . فأعلنتها مدوية في سمع الزمان . . أشهد أن لا إله إلا الله . . وأن محمداً رسول الله . . فتبعها كثيرون ممن تتلمذوا على يديها . . وما زال موضوعها يشغل كثيراً من الباحثين والباحثات في أوروبا .

وصدق الله العظيم ﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾[1] .

﴿ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[2] .

وبدلاً من أن تعقد مؤتمراً صحفيًا تعلن فيه عن اكتشافها العظيم . . عقدت مؤتمراً صحفيًا تعلن فيه إسلامها . .

وصدق رسول الله (ﷺ) :

(*) « جاء الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا فطوبى للغرباء »[3] .

(*) « سلمان منا آل البيت »[4] .

(*) رحم الله صهيبًا لو لم يخش الله لم يعصه »[5] .

ويقول عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) :

« بلال سيدنا أعتقه سيدنا أبو بكر . . »[6] .

* * *

(١) سورة فصلت الآية ٥٣ . (٢) سورة الإسراء الآية ٨١ .

(٣) رواه الطبراني وغيره .

(٤) سلمان الفارسي (رضي الله عنه) من فارس اختلف فيه الأنصار والمهاجرون . . قال الأنصار : إنه منا . وقال المهاجرون : إنه منا واختلفوا . . فقال رسول الله (ﷺ) «سلمان منا آل البيت» .

(٥) صهيب الرومي (رضي الله عنه) من الروم .

(٦) بلال (رضي الله عنه) من الحبش كان عبداً عند أمية بن خلف واشتراه منه أبو بكر (رضي الله عنه) وأعتقه لوجه الله .

وصدق الله ورسوله

قال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[1] .

ويقول رسول الحق (ﷺ) : « من اقتنى كلبًا ليس بكلب ماشية أو صيد أو حرث نقص من عمله كل يوم قيراطان »[2] وقوله «ليس بكلب ماشية أو صيد أو حرث » فى محل نصب صفة الكلب - أى كلبًا غير مقصود لحراسة ماشية أو للاصطياد به أو لحراسة الأرض . .

وهذه الكراهية بالنسبة لاتخاذ الكلاب تنشأ من أسباب ثلاثة :

(١) تخويف الناس وإرهابهم . . نتيجة نباح الكلاب مما ينتج عنه : قطع الطريق . . ومنع الصديق . . كما أنه ينبح الضيف . . ويروع السائل . . ويؤذى المارين .

(٢) ولوغها الأوانى فى غفلة أصحابها . . ونجاسة الطاهر منها . . ومن المطعم والملبس والمتاع . . إلخ مما يؤدى إلى بطلان العبادة .

(٣) امتناع الملائكة من دخول بيت فيه كلب أو صورة . . للحديث الذى أخبر به المصطفى (ﷺ) . . « إن الملائكة لا تدخل بيتًا فيه كلب أو صورة »[3]. مما ينتج عنه ذهاب البركة . . سبيل الخير والنماء .

ولقد كان الرسول (ﷺ) على موعد فى بيته ذات يوم مع جبريل عليه السلام كما أخبره بذلك ، ولكن جبريل لم يأت . . فأهم هذا الأمر رسول الله (ﷺ) وكيف أن السماء تخلف موعدها ؟ . ولكن السيدة عائشة (رضى الله عنها) اكتشفت تحت سرير النبى (ﷺ) كلبًا صغيرًا . . فأخرجته فنزل جبريل فى الحال . . وأخبره أن الذى منعه : هو ذلك الكلب الصغير الذى يمنع الملائكة من الدخول . . فتروى عائشة عليها السلام قائلة : « واعد

(١) سورة البقرة الآية ٢٢٢ .

(٢) رواه الترمذى .

(٣) رواه أحمد .

رسول الله (ﷺ) جبريل عليه السلام فى ساعة أن يأتيه ، فجاءت تلك الساعة ولم يأته . قال : وكان بيده عصا ، فطرحها من يده وهو يقول : ما يخلف الله وعده ولا رسله ، ثم التفت فإذا جرو كلب تحت سريره فقال : متى دخل هذا الكلب ؟ فقلت : والله مادريت ، فأمر به فأخرج . . فجاءه جبريل عليه السلام فقال له رسول الله (ﷺ) : وعدتنى فجلست لك ولم تأتنى ؟! فقال جبريل (عليه السلام) : منعنى الكلب الذى كان فى بيتك . . إنا لاندخل بيتًا فيه كلب أو صورة »[1].

فالكلب نجس وليس بطاهر ، فإذا مس جسم الإنسان لعابه أو لمس ثيابه . . فعليه أن يغسل مكان لعابه هذا . . بسبع غسلات ، إحداهن بالتراب . . وقد أثبت العلم الحديث فى أوروبا جدوى ومغزى « إحداهن بالتراب » .

فقد أثبتت طبيبة إنجليزية وأخرى أمريكية معاصرة أن لعاب الكلب يحتوى على مادة بها ميكروب ضار بالإنسان . . وهذا الميكروب لايقتل إلا بالماء والتراب . . مما يؤكده لنا معنى الحديث الشريف « إحداهن بالتراب » تصديقًا لحديث النبى (ﷺ) الذى قاله منذ أكثر من ألف وأربعمائة عام . .

﴿ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلاَّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴾[2].

* * *

(١) رواه مسلم .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٢٢ .

حدود الله

قال تعالى :

﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾[1].

صدق الله العظيم

(١) سورة البقرة – آية ٢٢٩ .

كذلك الأمة التى لاتقيم حدود الله . . فهى أمة بلا حمى (أسوار) . . مهددة بالغرق والحرق والضياع . .

ومثل حدود الله كمثل الحدود التى تضعها أى بلد . . حدًا لها . . بينها وبين البلاد التى تجاورها . . فهى مثلاً تضع سلكًا شائكًا أو تبنى حدًا خرسانيًا ، أو جيريًا تحدد به حدودها ، وتضع حرسًا يسمى «حرس الحدود» . . حتى لا يغير عليها المغيرون ، أو يعتدى عليها المعتدون . .

وهى بذلك تؤمن حدودها الجغرافية . . حدود الأرض التى تحيا عليها . . وكذلك «الحدود الروحية» . . الحدود الشرعية «حدود الله» التى تؤمن الإنسان فى كل مكان وزمان على نفسه وماله وعرضه . . وهى أولى بالحماية من حدود الأرض ، لأنه لا حماية للأرض . . بدون حماية العرض . .

فإذا كانت حدود الأرض أولى بالحماية ، فإن حدود العرض أولى وأولى . . لأنه لن ينتصر الجسد . . والروح مهزومة ، ولن تسلم الجبهة الخارجية إلا بسلامة الجبهة الداخلية .

ولن يستطيع الإنسان أن يجاهد بنفسه . . إذا لم يكن قد جاهد نفسه أولاً . . فجهاد النفس أولاً . . ثم الجهاد بالنفس ثانيًا . .

* * *

إهمال الحدود

إن إهمال الحدود فى أى بلد . . يجعل البلاد فى حالة من التسيب ويجعلها أشبه بالغابة التى لارادع لها ولا قانون . .

فمن قال مثلاً أن المرأة تخطف علنًا من بين أبنائها وزوجها وترمى فى الصحراء . . بعد أن يأخذ منها المجرمون ما يريدون ، وبعد ذلك تقيد هذه الجريمة البشعة ضد مجهول . .

إن إهمال الحدود . . يجعل المجرم يسود . .

فإقامة الحدود هو ردع للمجرمين ، وأمان للخائفين ، وحصن للناس أجمعين .

* * *

إحدى الكبر

وتروى كتب التاريخ أن سيدنا عمر (رضي الله عنه) . . عثر ذات يوم على قتيل ملقى فى الطريق . . فلم يهنأ له بال . . ولم يستقر له حال . . وظل يبحث عن القاتل . . وكان يقول : « قتيل لا يدريه عمر . . إنها لإحدى الكبر » . .

وبعد عام تقريبًا وجد (رضي الله عنه) طفلاً صغيراً ملقى فى نفس المكان الذى وجد فيه القتيل . . فحينما رآه قال (رضي الله عنه) : « وجدتها ورب الكعبة !! » . .

وأتى بامرأة من المدينة مؤمنة ذكية وأعطاها الولد . . وقال لها : لاحظى من تتردد عليه . . واكتمى سره ، فمن كتم سره ، ملك أمره . . وقلب الحر ، مهد السر . . وانتبهى لمن تهتم بأمره ، واحذرى أن تفصحى لها بشىء ثم أشاع عمر (رضي الله عنه) فى المسجد أنه قد عثر على لقيط فى الطريق . . وهو مع المرأة الفلانية . .

ثم بعد ذلك لاحظت المرأة من تتردد على الطفل وتداعبه وتلاعبه ، وتدمع عيناها . . وهى تقول له :

يا ترى من يكون أبوك ؟ . .

يا ترى من تكون أمك ؟ . .

وكان عمر يمر على هذه المرأة كل يوم بعد صلاة الفجر ، ليسأل عن الأخبار . وفى ذات يوم . . من الأيام . .

قالت له المرأة :

يا أمير المؤمنين : لقد لاحظت امرأة فى مقتبل العمر تتردد عليه يوميًا ، وتقبله وهى تبكى ، وتريد أن تأخذه معها بحجة مساعدتى فى تربيته . .

فقال لها عمر : انتظر ى عليها بعض الوقت . .

وسأل عمر عن هذه المرأة ، فوجدها فتاة من الصالحات وأبوها من الصالحين وكذلك أمها ، وهذه الفتاة : تحضر الدروس على يدى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ذاته . .

وبعد صلاة فجر اليوم التالى . . حمل أمير المؤمنين سيفه وذهب إلى بيت الفتاة فوجد عمها يجلس فى مصلاه . . بعد صلاة الفجر . . فالحديث يقول : « من صلى الفجر فى

جماعة ثم مكث يسبح الله فى مصلاه حتى مطلع الشمس . . كتب له أجر معتمر تمت عمرته . . » .

سلم عمر بن الخطاب عليه . . وسأله عن ابنة أخيه . . فقال الشيخ : هاهى فى مصلاها . .

فقال عمر (رضي الله عنه) : ائذن لى أن أكلمها بحيث ترانا ولا تسمعنا . . حتى لا تكون خلوة يحرمها الله . .

قال الشيخ : أنت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . .

قال عمر : وليكن . . إن الإسلام يحرم الخلوة على كل مسلم يؤمن بالله ورسوله . . حتى النبى (ﷺ) يقول : « إنى لا أصافح النساء » . .

وتقول عائشة : « مامست يده يد امرأة قط . . (ﷺ) » .

أما فى عصرنا هذا فقد تشابكت الأيدى . . والأذرع والأجساد . . واختلط الحابل بالنابل . .

وعلى كل فتاة تؤمن بالله واليوم الآخر . . ألا تسمح لأحد لا يحل لها أن يعبث بيدها . . تحت أى دعوى من الدعاوى . .

فجاءت الفتاة على مقربة من عمر (رضي الله عنه) وعلى مرأى من عمها . .

فقال لها عمر : يا أمة الله : أنا عمر بن الخطاب . .

واعلمى أن لكل داء دواء . . والله يفعل ما يشاء . . فلا تضيعى وقت الناس . .

قالت له : أنا أعلم أن وقتك ملك الناس . .

قال لها : الولد ابن من ؟

قالت له : ابنى يا أمير المؤمنين !

قال لها : فما القصة بلا خوف ؟

قالت له : لقد علمنا الإسلام القوة فى الله . .

فقال لها : ومن أبوه ؟

قالت : إن أباه هو الذى قتلته منذ عام . . ووضعته فى نفس المكان الذى ألقيت به

الطفل . . ثم أخذت تقص القصة ودموعها تسيل . . لقد مات أبى وتركنى صغيرة . . ولى عم هو الذى تراه بالباب . . كان يأتى ويسألنا هل لكم طعام ؟ . . هل لكم ملح ؟ . . هل . . ؟ هل . . ؟ وأمى هى التى توجد داخل البيت . .

والقصة تبدأ عندما . . عرض لأمى سفر . . وعمى كما تراه مشغولاً بحاله ، فلا يأتينا إلا لماما . . يسأل عن حالنا . . وقبل أن تسافر أمى . . وكلتنى إلى امرأة عجوز من الجيران . . أمانة عندها حتى ترجع . .

ولم تكن تعلم عن تلك العجوز أنها امرأة سوء . .

فكان يدخل علينا مجرم من المجرمين فى ثياب النساء ، ولم أكن أعلم ذلك ، ولكن المرأة العجوز تعلم أنه رجل . . فكنت أجلس فى البيت منكشفة شأن النساء . . فكنت لا أتحفظ لأننا جميعًا نساء .

وذات ليلة خرجت المرأة العجوز من بيتها . . وتركتنى وحدى بالبيت ، وبعثت لى بهذا الوحش . . ففوجئت وأنا نائمة بهذا الذئب على صدرى . . أما وأننى امرأة ضعيفة وهو جبار . . فنال ما يريد . .

فلما خفت على دينى ، وقد دنس عرضى ، وخفت على بطلان صلاتى . . فنظرت بجانبى فوجدت سكينًا فوكزتها فى صدره . . فمات . . واستعنت ببعض بنى عمومتى . . فحملوه وألقوه على الطريق . .

وقدّر الله أن أحمل من الحرام . .

وانتظرت حتى وضعت ، وحملت الطفل ، وألقيته مكان أبيه . .

فقال عمر :

لا بأس عليك . . لا تخافى . .

وهدأ روعها . . وتركها . .

وقال لعمها : أوصيك بها خيراً فإنها من الصالحات . .

انظر إلى عمر وتأمل . . لم يسترح ضميره حتى يعرف من القاتل ؟ وهو يقول . . : «قتيل لايدريه عمر ، إنها لإحدى الكبر» .

* * *



ثم قام فاختطب . . فقال : « إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »[1] .

* * *

القائم فى حدود الله

وعن النعمان بن بشير (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) قال : « مثل القائم فى حدود الله ، والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم . . فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقًا ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا »[2] .

* * *

واتقوا فتنة

وقد ورد فى بعض الأحاديث : أن الله تعالى أمر جبريل (عليه السلام) أن يهلك قرية ظالمة . . وأن لايترك منها أحدًا . . وكان فيها رجل صالح عابد زاهد . .

فقال جبريل (عليه السلام) : يارب . . يارب . . إن فيها فلانًا العابد الزاهد . .

فقال تعالى : ابدأ به . .

فسأله جبريل : لماذا يارب ؟

قال تعالى : لأنه لم يتغير لونه عندما انتهكت حرماتى . .

وصدق الله العظيم : ﴿ وَاتَّقُوا فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ﴾[3] .

* * *

(١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه .

(٢) رواه البخارى .

(٣) سورة الأنفال الآية ٢٥ .

أصـوات مريضة

وفى هذه الأيام نسمع أصواتًا مريضة لبعض الحمقى ، تنادى بعدم تطبيق الشريعة الإسلامية ، تحت دعوى أن القرآن الكريم لا يصلح لهذا العصر « عصر الكواكب » .

وما أظن هؤلاء إلا لصوصًا يخشون قطع الأيدى . . زناة يخشون الرجم . . ملحدين لا يؤمنون بالله . .

فهم يتحدثون عن أنفسهم عندما يتكلمون . . ويعلنون فى دعواهم أن تطبيق شرع الله سيملأ البلاد بالمعوقين ، وسيحيل الأمة أشبه بالعطلة والمجرمين ، وكأن البلاد كلها لصوص ومجرمون . .

فلهؤلاء أقول : إن يدًا واحدة تقطع . . لن يجرؤ أحد أن يسرق ، إذ يتخيل كل من يقدم على السرقة . . يده مقطوعة . . فيكف عن السرقة . .

وإن زانيًا واحدًا يرجم . . لن يجرؤ أحد أن يزنى . . إذ يتخيل نفسه على الملأ مرجومًا أو مجلودًا فيكف عن الزنا . .

وفى أرض الحجاز مثلاً لا نسمع أن قطعت يد أو رجم زان إلا كل ثلاث أو خمس سنوات . . ويكون هذا السارق أو الزانى من بلد غير الحجاز . . من السائحين مثلاً أو العاملين بها . .

ولم نسمع أن أرض الحجاز امتلأت بالمعوقين ، ولا بالعطلة والمجرمين . . لا . . بل نسمع أن الله فجَّر لها الأرض ذهبًا . . ورزقها من الطيبات . . وأطعمها من جوع . . وآمنها من خوف . .

فنشاهد مثلاً المحلات بها على مصراعيها . . وكلها أدوات وأجهزة كهربائية ذات القيمة العالية . . إلا أن أصحابها يذهبون إلى المساجد وقت الأذان ويخرجون ويتركونها وهم آمنون . . وعلى يقين أنه لن تمتد إليها يد قط .

وصدق الله العظيم : ﴿ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾[1] .

---

(١) سورة التوبة الآية ٢٨ .

أما نحن اليوم . . . : فنحن نصلى فى المساجد ونضع متاعنا أمام أعيننا . . بل أكثر من هذا . . إننا نسجد عليها خشية أن تصل إليها يد غير أمينة . .

وهذه هى المساجد عندنا . . فما بالنا بالبيوت . . وما بالنا بالمحلات . . وما بالنا بالأموال والمتاع . . ؟

فما العلاج إذن . . ؟

إن العلاج بسيط يسير على من يسره الله عليه . . وذلك بالعمل على تطبيق حدود الله تعالى . . حدًا حدًا . . وليبدأ كل بنفسه أولاً . . حتى يطعمنا الله تعالى من جوع . . ويؤمننا من خوف . . وذلك قوله تعالى : ﴿ فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِى أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ ﴾ (1).

فإن أساس الأمر كله العبادة . . والعبادة بجميع مقتضياتها . . الأركان والحدود . .

* * *

« أقيموا دولة الإسلام فى قلوبكم تقم على أرضكم »

يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ (2).

ويقول الرسول (ﷺ) :

(*) « حيث ما تكونوا يول عليكم » . .

(*) « إذا صلحت الرعية صلح الراعى » . .

إذن فالمسئولية مزدوجة بين الحكام والمحكومين . .

فعلى المحكومين . . وهم عامة الناس أن يطبقوا شرع الله فى أنفسهم أولا . .

---

(1) سورة قريش الآيتان ٣ ، ٤ .

(2) سورة الرعد الآية ١١ .

فلو أننا طبقنا شرع الله فى أنفسنا . . ولو أن كل واحد قام بتطبيق شرع الله فى بيته . . لقامت وحدها الشريعة . . وقامت الحكومة الإسلامية المرتقبة التى تحمى الحاكم من المحكومين . . وتحمى المحكومين من الحاكم . . وتقوى الروابط بينهما . . وتزرع الثقة فى نفوس الأمة . . وتنزع الشكوك من صدورهم . .

فلنبدأ بأنفسنا أولاً . . فإذا تحقق هذا فينا . . وطبقنا شرع الله فى أنفسنا . . طبقناه بعد ذلك فيمن نعول . . فإذا تحقق هذا فيهم . . وطبقنا شرع الله فيهم . . قامت وحدها « الدولة الإسلامية » . . التى تكاتفنا وهتفنا من أجلها ، وظللنا قرونًا نحلم بها :

* * *

مجد الأوائل

يا دولة الإسلام قومى	وتربعى فوق النجوم
وخذى ضياءك كله	من روضة الذكر الحكيم
وخذى مبادئك الهدى	من صاحب الخلق العظيم
ولتضربى لك قلعة	ضد الأعادى والخصوم
ولتجعلى مجد الأوائل	غاية حتى تدومى
لا يصلح الجيل الجديد	سوى تعاليم القديم (*)

* * *

(*) من شعر المؤلف .

من خشية الله تعالى

قال تعالى :

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ﴾[1].

صدق الله العظيم

(١) سورة الحشر - آية ٢١ .

الخوف من الله

يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾ (١) .

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ ﴾ (٢) .

﴿ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ (٣) .

﴿ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴾ (٤) .

ويقول رسول الله (ﷺ) :

(*) « إذا اقشعر جسد العبد المؤمن من خشية الله . . تساقطت عنه ذنوبه وخطاياه . . كما يتساقط عن الشجرة اليابسة ورقها . . » .

هذا . . وقد ورد أن الله تعالى يقول لملائكته يوم القيامة :

(*) « أخرجوا من النار من ذكرنى يومًا أو خافنى فى مقام » .

(*) « أخرجوا من النار من دمعت عيناه من خشيتى ولو كرأس ذبابة » .

(*) « أخرجوا من النار من كان فى قلبه مثقال ذرة من خير » .

هذا . . وقد ورد أن رجلاً كان يسكن بجوار أرملة جميلة ثرية . . قد زينها الشيطان له فعزم على اغتصابها . . وأعد العدة لذلك . . وبعد منتصف الليل . . وبعد أن نام الناس تسلل إلى بيتها . . وأغلق الأبواب . . وأخذ يتجول فى الحجرات . . حجرة حجرة فوقعت عينه على طعام شهى . . ومأكولات من شتى الألوان . . فمد يده ليأكل . . فتذكر أن هذا طعام لايحل له . . فقال : لا والله لا آكل حرامًا . . ثم نظر عن يمينه فرأى مالاً كثيراً فمد يده . . ولكن ما لبث أن رفعها . . وقال : لا والله لا أسرق أبدًا . . ثم تسلل

(١) سورة تبارك آية ١٢ .
(٢) سورة الرحمن الآية ٤٦ .
(٣) سورة آل عمران الآية ١٧٥ .
(٤) سورة الأعلى الآية ١٠ .

إلى حجـرة المـرأة وهى نائمة . . وقد هم باغتصابها . . لولا أن سرى فى الليل نداء الحق معلنًا ميلاد يوم جديد : الله أكبر . . الله أكبر . . بصوت بلال بن رباح . . فتجمد الرجل مكانه . . وقد انتابته قشعريرة الخوف من الله . . وقد استيقظ ضميره . . واتجه بقلبه وروحه إلى الله . . وقال : اللهم إنك تعلم أن نفسى تكره الحرام !! اللهم اجعل هذه المرأة الجميلة . . وهذا المال الكثير . . وهذا الطعام الشهى من نصيبى فى الحلال ياذا الجلال . .

اللهم اغننى بحلالك عن حرامك . . وبفضلك عمن سواك واحدر عنى أذاك . .

ثم انصرف لصلاة الفجر خلف رسول الله (ﷺ) .

وكانت المرأة قد سمعت أصواتًا . . وأحست بوقع أقدام فى بيتها . . فانكمشت فى فراشها . . فزعًا ورعبًا . .

وما إن سمعت الأذان وتنفس الفجر . . حتى نهضت من فراشها . . وأسرعت بالوضوء وهرولت للصلاة خلف رسول الله (ﷺ) . .

وبعد أن فرغت الصلاة تقدمت إلى النبى (ﷺ) وقالت له : يا رسول الله . . أنا أرملة مرغوبة . . وحال النساء دائمًا إلى الضعف . . وأنا فى بيتى وحدى . . ولقد سمعت الليلة الماضية أصواتًا . . وأحسست بوقع أقدام فى بيتى . . وأنا أخشى على نفسى . . وأريد زوجًا يحمينى .

وببصيرة النبوة وشفافيتها . . نظر النبى (ﷺ) حوله واختار هذا الرجل من بين الرجال وزوجها منه . .

وقد استجاب الله دعاء الرجل . . وأغناه بحلاله عن حرامه . . وبفضله عمن سواه فأطعمه وكساه . . وحصنه وهداه . . وأغناه وأرضاه . .

ومن ترك شيئًا فى الحرام مخافة الله . . ناله فى الحلال بفضل الله . . ومن خاف الله فى الدنيا . . أمنه يوم القيامة . .

يقول تعالى فى الحديث القدسى : « وعزتى وجلالى لا أجمع على عبدى خوفين . . ولا أجمع لـه أمنين أبدًا . . من خافنى فى الدنيا . . أمننى يوم القيامة . . ومن أمننى

فى الدنيا . . خافنى يوم القيامة . . ومن ندم على دنيا فاتته . . فقد اقترب من النار مسيرة ألف عام . . ومن ندم على أخرى فاتته فقد اقترب من الجنة مسيرة ألف عام . . ومن أذنب ذنبًا وهو يضحك . . دخل النار وهو يبكى . . ومن ضحك لشبابه . . بكى لهرمه . .

* * *

عصر الذئاب

سحقًا جرائم الاغتصاب ... سحقًا له عصر الذئاب
أغلقت أبواب الرضا ... وفتحت أبواب العذاب
الخزى فى الدنيا له ... والذل فى يوم المآب
إن اغتصابًا للفتاة ... نذير شؤم بالخراب
من يغتصبها تغتصبه ... النار فى يوم الحساب
وعذابه أمسى لظى ... ودماره قد صار قاب
الخزى فى الدنيا له ... والنار فى يوم المآب[1]

* * *

خير من الدنيا وما فيها

هذا . . ومن أراد أن يكون من الذين يخشون ربهم بالغيب . . فما عليه إلا أن يتجنب الكبائر السبع . . فمن تجنب الكبائر السبع . . فقد أغلق عن نفسه أبواب النار السبع . .

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾[2] .

والكبائر السبع هى : الشرك . . القتل . . الزنا . . عقوق الوالدين . . السرقة . . أكل مال اليتيم . . شهادة الزور . .

---

(١) من شعر المؤلف .
(٢) سورة النساء الآية ٣١ .

يقول ابن عباس :

هذه الآية خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس . .

فالخوف الخوف من الله ... الخوف من الله حياة

من يخشى الله تولاه ... ويظل عزيزًا ذا جاه

فالخوف من الله نجاة ... والخوف من الله حياة (1)

* * *

فالأمن فى الخوف من الله ... والعز فى الذل إلى الله

والغنى فى الفقر إلى الله ... والرفعة فى التواضع لله

اللهم اغننا بالفقر إليك ... ولا تفقرنا بالاستغناء عنك

اللهم آمنا بالخوف منك ... ولا تخفنا بالأمان إليك

اللهم أعزنا بالذل إليك ... ولا تذلنا بالاعتزاز عليك

اللهم ارفعنا بالتواضع إليك ... ولا تضعنا بالترفع عليك

* * *

من خشية الله تعالى

قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ * وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لا يُشْرِكُونَ * وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ * أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾(2) .

هذه الآيات التى هى بين أيدينا ونستمع إليها ونستمتع بها دائمًا من سورة المؤمنون .

وسورة المؤمنون : من السور المكية التى تعالج أصول الدين من التوحيد والرسالة والبعث وسميت بهذا الاسم الجليل «المؤمنون» تخليدًا لهم وإشادة بمآثرهم العظيمة ، وفضائلهم الكريمة التى استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى فى جنات النعيم .

(1) من شعر المؤلف .

(2) سورة المؤمنون الآية 57 .

ورثة الفردوس

وقد روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) قال : كان إذا نزل الوحى على رسول الله (ﷺ) يسمع عند وجهه دويًا كدوى النحل ، فلبثنا ذات يوم ساعة . . فاستقبل القبلة . . وقال : اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا ، وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا .

ثم قال : لقد أنزل على عشر آيات من أقامهن دخل الجنة . . ثم قرأ قوله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ * إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ * فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ * أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ * الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (1) .

* * *

الجنة تتكلم

وقد ورد أن الله عندما خلق الجنة ، وزينها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، من الحور ، والكافور ، والنور ، والسرور ، والقصور .

قال لها ياجنة : تكلمى . .

قالت الجنة : « قد أفلح المؤمنون » . . « سعد من دخلنى » . .

ثم مدحهم الله وذكرهم بأعظم صفاتهم . . فقال عز وجل :

﴿ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ﴾

أى من جلال الله وعظمته خائفون . . ومن خوف عذابه وعقابه حذرون .

---

(1) سورة المؤمنون الآية 1 - 11 .

﴿ والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ﴾

يصدقون بآيات الله القرآنية وآياته الكونية . . وهى الدلائل والبراهين الدالة على وجوده سبحانه :

ولله فى كل تحريكة وفى كل تسكينة شاهد
وفى كل شىء له آية تدل على أنه الواحد

﴿ والذين هم بربهم لا يشركون ﴾

أى : لا يعبدون معه غيره ، بل يوحدونه ويخلصون العمل لوجهه . . فلا يعبدون المال من دون الله ، ولا يعبدون النساء من دون الله ، ولا يعبدون الأبناء من دون الله . . إذ لا يليق بنا أن نأكل خيره . . ونعبد غيره . . فلا نحب الدنيا وننسى الآخرة ، ولا نحب المال وننسى الحساب ، ولا نحب القصور وننسى القبور ، ولا نحب النساء وننسى الحور .

وقد قال رسول الله (ﷺ) : « سيأتى زمان على أمتى يحبون خمسًا وينسون خمسًا . . يحبون الدنيا وينسون الآخرة . . يحبون المال وينسون الحساب . . يحبون الخلق وينسون الخالق . . يحبون الذنوب وينسون التوبة . . يحبون القصور وينسون القبور . . »

* * *

خوف ورجاء

﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾

وهذه هى الصفة الرابعة من أوصاف المؤمنين . . أى : يعطون العطاء من زكاة وصدقة . . ويتقربون إلى الله بشتى القربات : من أفعال الخير والبر . . وهم يخافون أن لا تقبل منهم أعمالهم . .

﴿ أنهم إلى ربهم راجعون ﴾ أى : لخوفهم أن يكونوا قد قصروا فى واجب من واجبات الله . . ورجائهم أن يقوموا بها على خير وجه . . لعلمهم أنهم راجعون إلى ربهم . . راجعون راجعون . . وقد سألت السيدة عائشة (رضى الله عنها) رسول الله (ﷺ) عن الآية الكريمة : ﴿ والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة ﴾ أهو الذى يسرق ويشرب الخمر ويعصى وهو يخاف الله عز وجل ؟

فقال لها النبى (ﷺ) : لا يابنت الصديق : ولكنه الذى يصلى ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل . .

﴿ أولئك يسارعون فى الخيرات ﴾

أى : أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة ، هم الذين يسابقون فى الطاعات ، لينالوا أعلى الدرجات .

﴿ وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴾[1] .

﴿ لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ ﴾[2] .

* * *

أعلى مقامات الصديقين

﴿ وهم لها سابقون ﴾

أى : هم الجديرون بها والمستحقون لها . . وهذه صفاتهم . . خوف ووجل ، طاعة وعمل . وهذه هى أعلى مقامات الصديقين . . رزقنا الله الوصول إليها . .

وقد كان الخوف من الله سمة وشيمة من شيم الأولين . .

فقد كان عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة . . والذى حكمها من مشرقها إلى مغربها . . والذى قال فيه رسول الله (ﷺ) :

« أنت سراج أهل الجنة يا عمر »

« لو أن نبيًا بعدى لكان عمر »

« لو نزل عذاب من السماء ما نجا إلا عمر »

« الحق على قلب عمر ولسانه »

« الشيطان يفر منك يا عمر . . ماسلكت طريقًا إلا وسلك الشيطان طريقًا غيره »

---

(١) سورة المطففين الآية ٢٦ .

(٢) سورة الصافات الآية ٦١ .

هذا العملاق الكبير . . كان يخشى الله خشية من يعتقد أن النار لم تخلق إلا له . .

فيقول (رضي الله عنه) : « لو نادى مناد الله يوم القيامة : كل الناس يدخلون الجنة إلا رجلاً واحدًا . . لظننت نفسى ذلك الرجل » .

* * *

موت العمالقة

وعندما طعن عمر (رضي الله عنه) . . ووقع على الأرض . . وهو ينزف دمه ويحتضر . . أسرع ابنه عبد الله . . وأتى بحجر ووضعه تحت رأسه . . فلما أفاق عمر (رضي الله عنه) قال لابنه : ثكلتك أمك . . ضع رأسى على الأرض . . واجعل خدى على التراب . . فلعل الله ينظر إلى وأنا فى هذه الذلة فيغفر لى . .

فقال ابن عباس : يا أمير المؤمنين لم كل هذا الخوف . . ؟! وقد فتح الله بك الفتوح ومصر الأمصار . . وفعل وفعل . .

فقال (رضي الله عنه) : وددت لو أنجو لالى ولا علىّ . .

فيقولون له : إن الجنة الآن تتزين لاستقبالك . .

فيقول : إن المغرور من غررتموه . . خذوا كل فتوحاتى وكل أعمالى . . وأعطونى ليلة من ليالى أبى بكر ويومًا من أيامه . .

فقالوا له : وما تلك الليلة ؟ . . وما ذاك اليوم ؟

فقال لهم : أما الليلة . . إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا . . وأما اليوم . . يوم الردة يوم أن وقف أبو بكر فى وجه المرتدين دفاعًا عن الإسلام .

ثم يبكى (رضي الله عنه) وهو على فراش الموت . . ويقول :

ياليتنى شعرة فى صدر أبى بكر !!

يا ليتنى شعرة فى صدر أبى بكر !!

ليت أمى لم تلدنى !!

ليتنى لم أك شيئًا !!

هذا . . ولقد كان أبو بكر نفسه يقول :

ليتنى شعرة فى صدر رجل مؤمن . .

إلى هذا الحد كانوا يخافون الله . .

خافوا فسلموا . .

خافو فأمنوا . . فى الدنيا والآخرة . .

فإن الله لايجمع لعبد من عباده خوفين ولا أمنين . . أبدًا . .

فمن خاف الله فى الدنيا . . أمن الله يوم القيامة . .

ومن أمن الله فى الدنيا . . أخافه الله يوم القيامة . .

ومن خاف الله . . خوّف الله منه كل شىء . .

ومن لم يخش الله . . خوفه الله من كل شىء . .

ومن لم يخش من شىء . . خاف من كل شىء . .

* * *

وجل القلوب

هذا . . وقد روى البيهقى عن العباس بن عبد المطلب (رضي الله عنه) قال : كنا جلوسًا مع رسول الله (ﷺ) تحت شجرة فهاجت الرياح ، فوقع ماكان فى تلك الشجرة من ورق يابس وبقى ماكان من ورق أخضر . . فقال الرسول (ﷺ) مربيًا ومعلمًا أصحابه :

« ما مثل هذه الشجرة . . ؟

فقال القوم : الله ورسوله أعلم . .

فقال (ﷺ) : مثلها مثل المؤمن إذا اقشعر من خشية الله عز وجل . . وقعت ذنوبه وبقيت له حسناته . . ».

فقد شبه الرسول (ﷺ) الحسنات بالورق الأخضر النافع . . وشبه السيئات بالورق اليابس الذابل .

وهذه الصورة غاية فى الروعة والجلال . . وبيان ببلاغة الأسلوب النبوى المشرق الوضاء . .

فإذا هاجت الرياح ، وتساقطت أوراق الشجرة اليابسة ، مثلها مثل اضطراب القلب المسلم من خشية الله . . تتساقط عنه ذنوبه وخطاياه . .

اللهم أسقط أوراق أشجارنا اليابسة من خريف المعاصى . .

واكس أشجارنا أوراقًا خضراء من ربيع الجنة . .

آمين . . آمين . . آمين . .

أتراب تراب لتراب	ما بين ذهاب وإياب
قل من يخش اليوم حسابى	يأمن عاقبتى وعذابى
فالنار لمن يعبد غيرى	والجنة جنة أحبابى
إن تطلبنى تأمل عفوى	لن أغلق فى وجهك بابى
أفتح لك أبواب جنانى	فادخل من أى الأبواب

* * *



الإيمـــان

قال تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً ﴾[1] .

صدق الله العظيم

(١) سورة الكهف - الآيتان ١٠٧ ، ١٠٨ .

الذين آمنوا وعملوا الصالحات

يقول تعالى :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً * خَالِدِينَ فِيهَا لا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلاً * قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا * قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ (١) .

الحمد لله

هذه الآيات التى هى بين أيدينا والتى استمعنا إليها كثيراً واستمتعنا بها أكثر ، وقرأناها بقلوبنا . . قبل أعيننا . . هى خواتيم سورة الكهف . .

وسورة الكهف من السور المكية . . وهى إحدى سور خمس بُدئت بـ : الحمد لله ، وهذه السور هى : الفاتحة ، الأنعام ، الكهف ، سبأ ، فاطر . .

وكلها تبتدئ بتمجيد الله جل وعلا وتقديسه ، والاعتراف له بالعظمة والكبرياء ، والجلال والكمال . .

﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله . . وعملوا بما يرضيه جل وعلا . .

﴿ كانت لهم جنات الفردوس نزلا ﴾ لهم أعلى درجات الجنة ، وهى الفردوس الأعلى نزلاً ومستقراً وسكنًا . .

﴿ خالدين فيها لايبغون عنها حولا ﴾ أى ماكثين فيها أبدًا . . لايطلبون عنها تحولاً ولاتغييراً . . لأن النفس عادة تحب التغيير . . وتكره الرتابة . . وتعاف التكرار . . وتمل الجمود . . لكن الجنة التى أعدها الله لعباده المؤمنين . . لا يسأم منها أهلها . .

(١) سورة الكهف الآيات ١٠٧ - ١١٠ .

لأن الله قد أعدها بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . . فهى متعددة . . متجددة . . متعددة الألوان والأشكال والأصناف والثمار . . متجددة الحسن والطعم والمذاق . .

* * *

ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء

﴿ قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى ﴾ تمثيل لسعة علم الله . . والمعنى : لو كانت بحار الدنيا حبراً ومداداً وكتبت به كلمات الله وحكمه وعجائبه . .

﴿ لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ﴾ أى لفنى ماء البحر على كثرته وانتهى ، وكلام الله لاينفد لأنه غير متناه كعلمه سبحانه . .

﴿ ولو جئنا بمثله مددا ﴾ أى ولو جئنا ببحر وراء بحر وراء بحر ما نفدت آيات الله ولا حكمه ولا عجائبه . . لأن كلام الله لا يتناهى .

﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىَّ أنما إلهكم إله واحد ﴾ قل لهم يا محمد : إنما أنا إنسان مثلكم ، أكرمنى الله بالوحى ، وأمرنى أن أخبركم أنه واحد أحد لاشريك له . .

﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه ﴾ من كان يرجو ثوابه ويخاف عقابه . . من كان يرجو لقاء الحب والكرامة . . والخلود والعز يوم القيامة . .

﴿ فليعمل عملا صالحا ﴾ عملا يخلص فيه العبادة . . عملاً خالصًا مخلصًا لوجهه الكريم . لأن الله لايقبل إلا ماكان خالصًا لوجهه الكريم . .

﴿ ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ أى لايشرك وهو يعبد ربه جنة ولا نارًا ولا عذابًا ولا نعيمًا . . ولا رياء ولا سمعة . . فتأتى عبادته لله خالصة مخلصة . .

فمن أحب لقاء الله أحب الله لقاءه . .

* * *

لا أرضى بربى بديلا

ولعل هذا هو المعنى الذى فطنت إليه رابعة العدوية حين قالت :

كلهم يعبدون من خوف نار ... ويرون النجاة فوزاً جزيلا
ليس لى فى النار والجنان حظ ... أنا لست أرضى بربى بديلا

* * *

آيات المحبة

وأرى أن هذه الآيات «خواتيم سورة الكهف» هى آيات المحبة فى القرآن الكريم . . وهى ظل المحبين الوارف ، فهى الظل الظليل ، والدليل والسبيل ، لمرضاة الجليل . . سبحانه وتعالى . .

إنه لقاء الله ، لقاء الحب ، لقاء المحبة ، لقاء الحبيب بحبيبه وإن طال ، لقاء الشوق والجمال . . والكمال والجلال . .

* * *

الله جميل يحب الجمال

يطول اشتياقى بطول الحياة ... ويحلو اللقاء إذا الشوق طال
لسانى بذكرك لم ينثنى ... وقلبى بذكرك دون انشغال
كأنى بقلبى فى مسجد ... يؤذن ما بين صدرى بلال
أحبك فى كل شىء جميل ... فأنت جميل تحب الجمال(1)

* * *

(1) من شعر المؤلف .

زهرة الوجود

فالحب أسمى ما فى الوجود . .

وهو أرقى درجات المعرفة . .

وهو عبارة عن ميل الطبع إلى المحبوب . .

فإن تأكد هذا الميل وقوى : سمى عشقًا . .

وقد بلغت «زليخا» امرأة العزيز مبلغًا عظيمًا من محبتها ليوسف (عليه السلام) فقد ذهب مالها وجمالها من أجل يوسف ، وكان لها من الجواهر والقلائد ما تنوء بحمله الجمال ، وقد أنفقتها جميعًا فى محبة يوسف . .

وكان كل من قال لها : رأيت يوسف اليوم أعطته قلادة تغنيه بها طول العمر . . حتى لم يبق لها شىء . .

وكانت تسمى كل شىء باسم يوسف ، وقد نسيت كل شىء سواه ، من فرط العشق . . وإذا رفعت رأسها إلى السماء . . رأت اسم يوسف مكتوبًا على الكواكب والنجوم ، والشمس والقمر . .

وكان إذا سألها أحد ما اسمك ؟

قالت : اسمى يوسف . .

لكنها عندما آمنت ، وتزوجت به (عليه السلام) . . انفردت عنه ، وتخلت للعبادة ، وانقطعت لله تعالى . . فكان يدعوها إلى فراشها بالليل فتدافعه إلى النهار ، فإذا دعاها بالنهار . . سوفت به إلى الليل وهى تقول له :

إنما كنت أحبك يايوسف . . قبل أن أعرف الله ، فلما عرفت الله ، فما أبقت محبته محبة لسواه . .

* * *

ملك الجمال

ملك الجمال ياذا الجلال	إنى أحبك فى امتثال
حب الحقيقة لا الخيال	والحب أسمى رأس مال
بين النساء أو الرجال	بين الأحبة فى الحلال
ماذا أقول وما يقال	فى حق من صنع الجمال
وله نسبح فى امتثال	والأرض تسجد والجبال
حتى السموات العضال	ولديه وإليه المآل[1]

وحكوا : أن رجلاً اشترى غلامًا يستعين به فى خدمته . . فقال له الغلام . . لى معك ثلاثة شروط . .

أولها : أن لا تمنعنى عن صلاة مكتوبة إذا حان وقتها . .

ثانيها : أن تأمرنى بالنهار ماشئت ولا تأمرنى بالليل بشىء . .

ثالثها : أن تجعل لى فى بيتك حجرة لايدخلها غيرى .

وهذه كل شروطى . .

فقال له الرجل لك هذه الشروط . . قم وانظر . . فى تلك البيوت واختر لك حجرة منها . . فقام الغلام فوجد بيتًا خرابًا . . فقال : اخترت هذا . .

فقال له سيده : اخترت بيتًا خرابًا . .

فقال الغلام : يا مولاى . . أما علمت أن الخراب مع الله بستان ؟

فكان يخدم مولاه بالنهار ، ويتفرغ بالليل لعبادة الله سبحانه وتعالى . . فبينما هو كذلك . .

إذ طاف سيده ذات ليلة فى الدار . . فبلغ حجرة الغلام . . فإذا هى منورة ، والغلام

(١) من شعر المؤلف .

ساجد ، وعلى رأسه قنديل من النور . . معلق بين السماء والأرض ، والغلام يناجى ربه ، ويتضرع إليه قائلاً : إلهى أوجبت علىَّ حق سيدى وخدمته بالنهار ، ولولا ذلك ما انشغلت ليلى ولا نهارى إلا بخدمتك . . فاعذرنى يارب !

كل هذا وسيده ينظر إليه . . حتى أصبح الصبح ، ورد القنديل وانضم سقف البيت ، فرجع الرجل وأخبر امرأته بما رأى وما سمع فى الليلة الماضية . . وفى الليلة الثانية أخذ الرجل بيد امرأته . . وجاءا إلى باب الحجرة . . فإذا بالغلام فى السجود والقنديل على رأسه . . والحجرة مضيئة كاللؤلؤة . . فوقفا على الباب ينظران إليه ويبكيان حتى أصبحا .

وفى الصباح دعا الرجل الغلام . . وقال له : يا غلام . . أنت طليق لوجه الله . . حتى تتفرغ لعبادة من كنت تعتذر إليه بالأمس . .

وهنا أحس الغلام أن سيده قد رآه . . وهو يريد أن يعبد الله ولا يراه أحد سواه . .

فرفع يديه إلى السماء وقال :

يا صاحب السر إن السر قد ظهرا ولا أريد حياتى بعدما اشتهرا

ثم خرَّ الفتى ميتًا . .

وهكذا . . كانوا يعبدون الله . .

فويل للذين يعبدون سواه . .

وويل للذين يعبدون الجاه . .

* * *

إذا الإيمان ضاع فلا أمان

يقول تعالى :

﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (١).

* * *

ليس الإيمان بالتمنى

« ليس الإيمان بالتمنى ، وإنما ما وقر فى القلب ، وصدقه العمل » . .

إن الإيمان جوهرة فى القلب ، ولؤلؤة فى الضمير ، والإيمان فى القلب : كالنور فى المصباح ، وقلب بلا إيمان : قنديل بلا زيت . .

والإيمان أمان ، ويقين واطمئنان ، والإسلام سلام . .

والمؤمن : من أمنه الناس على أنفسهم وأموالهم . .

والمسلم : من سلم المسلمون من لسانه ويده . .

* * *

(١) سورة المجادلة الآية ٢٢ .

الإيمان ملاك الإنسان

والشيطان ذئب الإنسان

والإيمان يزيد وينقص . . فطوبى لمن ازداد إيمانه يومًا بعد يوم ، وويل لمن نقص إيمانه يومًا بعد يوم . .

فإذا كان الشيطان ذئب الإنسان . .

فإن الإيمان ملاك الإنسان . .

إنه الملاك الطاهر الذى يسكن هذا البنيان . . إنه البنيان الآدمى ألا وهو الإنسان . .

إنه الإيمان : الذى يحيط صاحبه بسياج من فولاذ ، فلا يستطيع إنس ولا جان ، أن يقترب منه أو يمسه بسوء ، فالإيمان قلعة للحق يضربها الله جل جلاله حول من تمسك بدينه واعتصم بحبله . .

وقد ورد أن أحد الصحابة رضوان الله عليهم . . كان يسير يومًا عابرًا نهر الأردن . . فسمع فى الظلام أصواتًا تنبعث من الماء . .

وتقول : اذهبوا فوسوسوا للزبير بن العوام . .

ثم تعود هذه الأصوات . . وتقول : والله ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً . .

فيعود كبير الشياطين آمرًا ذريته بضرورة ما أمرهم به . .

فذهبوا وعادوا . . قائلين : لقد وجدنا عليه ستارًا من فولاذ ، لا نستطيع اختراقه . .

سمع الرجل هذا الحوار بين الشيطان وذريته ، وذهب إلى المدينة . . وبحث عن الزبير بن العوام ، وأخبره بذلك : لقد سمعت بأذنى هاتين الشياطين تتآمر عليك . .

ماذا تصنع حتى أن الشياطين لا تستطيع الوصول إليك ؟

قال الزبير : بشرك الله بالخير . . والله ماهى إلا كلمات ثلاث سمعتها من المعصوم (ﷺ) « آمنت بالله العظيم ، وكفرت بالجبت والطاغوت ، واستمسكت بالعروة الوثقى لاانفصام لها ، والله سميع عليم » . . ثلاثًا فى الصباح . . وثلاثًا فى المساء . . فيحفظنى الله بهن من الشيطان الرجيم ، ويحفظ بهن كل من قالهن فى الصباح وفى المساء . .

وهذه الكلمات تخضع لها كل الشياطين على ظهر الأرض أو فى بطنها .

فإذا قالها اللسان كانت بمثابة قذائف على الشياطين ، لا يستطيعون معها حيلة أو يجدون لها سبيلاً .

ولو قالها العروس وعروسه فى ليلة الزفاف . . صباحًا ومساءً لم يمس أحدهما إنس ولا جان ، مما نسمع عنه فى تلك الأيام ، فهى تقضى على السحر وتبطله ، وعلى الربط وبواطنه ، وتقطع دابره . .

إنها كلمات الإيمان . . إنها الإيمان . .

إنه الإيمان الذى تزول الجبال ولايزول . .

* * *

حلاوة الإيمان

كيف نتذوق الإيمان إذن ؟

إن للإيمان حلاوة يتذوقها كل من أحب الله ورسوله . . وأتمر بما أمر الله به . . وانتهى عما نهى الله عنه . .

فمثلاً يقول الرسول الكريم (ﷺ) : « النظرة سهم مسموم من سهام إبليس ، من تركها مخافة الله ، أذاقه الله حلاوة الإيمان فى قلبه » . .

إذن هى التقوى ، فما التقوى إذن ؟ .

التقوى أن يراك الله حيث أمرك . . وأن يفتقدك حيث نهاك . .

أو هى كما قيل :

الخوف من الجليل ، والعمل بالتنزيل ، والرضا بالقليل ، والاستعداد ليوم الرحيل إذا كان هذا هو الإيمان بحلاوته وطلاوته وقوته وعظمته . .

وإذا كان هذا هو السياج بقمته ومنعته . .

وإذا كان هذا هو الضياء برحمته وسماحته . .

فكيف بمن يترك الحلاوة والطلاوة والقوة والمنعة والرحمة والسماحة والجمال ؟

وكيف بمن لا يملك شيئًا من هذا على الإطلاق ؟

وكيف بمن أضاع الإيمان من قلبه ، جوهرة اليقين ، ولؤلؤة الوجدان ؟

عندئذ يصير الإنسان أحط من حيوان ، كالبيت الخرب ، كالسراج المظلم لا أمان ، لا سلام ، لا سكينة ، لا اطمئنان ، لا إحسان .

يحيط به الشر من كل مكان ، ويتربص به الشيطان أيًا كان . .

وتضيع البركة ، وتنشل الحركة ، ويكون الدمار .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ * وَطُورِ سِينِينَ * وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ * لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ * ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ * فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ * أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ ﴾ صدق الله العظيم .

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ صدق الله العظيم .

* * *

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات

فالناس كل الناس فى أسفل سافلين . .

والناس كل الناس فى خسران مبين . .

إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات . .

إذا الإيمان ضـاع فـلا أمـان	ولا دنيـا لمن لـم يحى دينا
ومن رضى الحياة بغير دين	فـقـد جعل الفناء لها قـرينا
وفى التوحيـد للهـمـم اتحاد	ولـم تبنوا العـلا متـفـرقـينا

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ صدق الله العظيم (1) .

* * *

(1) سورة المجادلة الآية ٢٢ .

الإنســـان

قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾[1].

صدق الله العظيم

(١) سورة الانفطار الآيات ٦ ، ٨ .

الإنسان

يقول تعالى :

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ * يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ (١) .

هذه الآيات التى بين أيدينا من سورة الانفطار . . وهى من السور المكية التى تعالج الانقلاب الكونى الذى يصاحب قيام الساعة ، وما يحدث فى ذلك اليوم الخطير من أحداث جسام ، ثم بيان حال الأبرار ، وحال الفجار ، يوم البعث والنشور .

ابتدأت السورة الكريمة ببيان مشاهد الحدث الكونى الأكبر ، من انفطار السماء ، وانتثار الكواكب ، وتفجير البحار ، وبعثرة القبور ، وما يعقب ذلك من الحساب والجزاء

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ * وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ * وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ * وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ * عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾

ثم تحدثت عن جحود الإنسان وكفرانه لنعمة ربه . . وهو يتلقى فيوض النعمة منه جل وعلا ، ولكنه لا يعرف للنعمة حقها ، ولا يعرف لربه قدره ، ولا يشكر على الفضل والنعمة والإحسان . . ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ * الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ * فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾

والمعنى . . :

﴿ إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ﴾ إذا السماء انشقت بأمر الله لنزول الملائكة . . كقوله تعالى . . ﴿ وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنزِيلاً ﴾(٢) .

﴿ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ﴾ . . إذا النجوم تساقطت وتناثرت ، ومالت وزالت عن بروجها وأماكنها . .

(١) سورة الانفطار .
(٢) سورة الفرقان الآية ٢٥ .

﴿ وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ ﴾ . . إذا البحار فتح بعضها إلى بعض ، فاختلط عذبها بمالحها ، وأصبحت بحرًا واحدًا .

﴿ وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ ﴾ . . إذا القبور قلبت ونبش ما فيها من الموتى وصار ما فى باطنها ظاهرا على وجهها . .

﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ ﴾ . . هذا هو الجـواب . . أى : علمت عندئذ كل نفس ما قدمت من خير أو شر . . وماقدمت من صالح أو طالح . .

هل جزاء الإحسان إلا الإحسان

ثم بعد ذكر أحوال الآخرة وأهوالها . .

انتقلت الآيات لتذكر الإنسان الغافل الجاهل بما أمامه من أهوال وشدائد . .

فقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ ﴾ أى شىء خدعك بربك الحليم الكريم الرحيم ، حتى عصيته وتجرأت على مخالفة أمره ، مع إحسانه إليك ، وعطفه عليك . . وهذا توبيخ وعتاب كأنه قال : كيف قابلت الإحسان بالعصيان . . والرحمة بالطغيان . . ﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ ﴾[1] .

ثم عدد نعمه عليه فقال : ﴿ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ ﴾ أى : الذى أوجدك من العدم ، فجعلك سويًا ، فتيا قويًا ، سالم الأعضاء ، تسمع وتعقل وتبصر ، ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ * وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ﴾ [2] .

﴿ فَعَدَلَكَ ﴾ أى : جعلك معتدل القامة ، مرتفع الهامة ، منتصبًا مستقيمًا ، فطيمًا وسيمًا . . فى أجمل صورة ، وأكمل هيئة . .

﴿ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ ﴾ أى : فى أى صورة ما شاء شكلك . . من صور الحسن والجمال والكمال والجلال . . فى أى صورة شاءها واختارها لك من الصور الحسنة القويمة التى مَنَّ الله بها على الإنسان . . فى قوله تعالى : ﴿ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴾ [3] .

---

(١) سورة الرحمن الآية ٦٠ . (٢) سورة البلد الآيتان ٨ ، ٩ . (٣) سورة التين الآية ٤ .

ثم أثنى على نفسه فيها فى قوله سبحانه . . :

﴿ ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ (١) .

ثم باهى وتحدى به فى قوله تعالى :

﴿ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِن دُونِهِ ﴾ (٢) .

* * *

من عتاب الله لابن آدم

وفى هذا المعنى . .

لم أقرأ أعظم ولا أكرم ولا أوجع ولا أفجع من عتاب الله لابن آدم معددًا نعمه عليه . . فى أدب ربانى . . تخر له الجبال خشوعًا . . والقلوب تسليمًا . . والعيون دموعًا . . لجلال مافيه . . وبلوغ مايحتويه . . يقول تعالى : « يا ابن آدم . . جعلت لك قرارًا فى بطن أمك . . وغشيت وجهك بغشاء . . لئلا تفزع من الرحم . . وجعلت وجهك إلى ظهر أمك لئلا تؤذيك رائحة الطعام . . وجعلت لك متكأ عن يمينك ومتكأ عن شمالك . . فأما الذى عن يمينك فالكبد . . وأما الذى عن شمالك فالطحال . . وعلمتك القيام والقعود فى بطن أمك . . فهل يقدر على ذلك أحد غيرى . . ؟ فلما أن تمت مدة حملك . . أوحيت إلى الملك الموكل بالأرحام أن يخرجك . . فأخرجك على ريشة من جناحه . . لالك سن يقطع . . ولالك يد تبطش . . ولالك قدم تسعى بها . . وأنبت لك عرقين رقيقين فى صدر أمك . . يجريان لك لبنًا خالصًا . . حارًا فى الشتاء . . باردًا فى الصيف . . وألقيت محبتك فى قلب أبويك . . فلا يشبعان حتى تشبع . . ولايرقدان حتى ترقد . . فلما أن قوى ظهرك . . واشتد أزرك . . بارزتنى بالمعاصى . . واعتمدت على المخلوقين . . ولم تعتمد علىّ . . وتسترت ممن يراك . . وبارزتنى بالمعاصى فى خلواتك ولم تستح منى . . ومع هذا إن دعوتنى أجبتك . . وإن سألتنى أعطيتك . . وإن تبت إلىّ قبلتك . .

* * *

(١) سورة المؤمنون الآية ١٤ .

(٢) سورة لقمان الآية ١١ .

المراجـــع

١ - القرآن الكريم .
٢ - المعجم المفهرس .
٣ - تفسير القرآن العظيم (لابن كثير) .
٤ - تفسير فى ظلال القرآن (للشهيد سيد قطب) .
٥ - تفسيرا لقرطبى .
٦ - تفسير الجلالين .
٧ - تفسير أبى السعود .
٨ - تفسير المنار (للشيخ رشيد رضا) .
٩ - صفوة التفاسير (للشيخ محمد على الصابونى) .
١٠ - تفسير الطبرى .
١١ - فتح البارى شرح صحيح البخارى .
١٢ - صحيح مسلم .
١٣ - مسند الإمام أحمد .
١٤ - سنن أبى داود .
١٥ - زاد المعاد (لابن القيم) .
١٦ - الترغيب والترهيب (للمنذرى) .
١٧ - الدين الخالص (محمود خطاب السبكى) .
١٨ - فقه السيرة (للبوطى) .
١٩ - فقه السنة (السيد سابق) .
٢٠ - الفقه على المذاهب الأربعة .
٢١ - إحياء علوم الدين (للغزالى) .
٢٢ - مقدمة ابن خلدون .
٢٣ - أحكام القرآن (لابن العربى) .
٢٤ - لسان العرب (لابن منظور) .
٢٥ - مختار الصحاح (للرازى) .
٢٦ - المعجم الوسيط (مجمع اللغة العربية) .
٢٧ - مفردات القرآن (للأصفهانى) .
٢٨ - البداية والنهاية (لابن كثير) .
٢٩ - الأحاديث القدسية (المجلس الأعلى للشئون الإسلامية) .
٣٠ - رياض الصالحين (للنووى) .
٣١ - الموطأ (للإمام مالك) .
٣٢ - الدر المنثور (للسيوطى) .
٣٣ - الدرارى المضيئة (للشوكانى) .
٣٤ - فضائل القرآن (لابن كثير) .
٣٥ - روح المعانى (للألوسى) .
٣٦ - الروح (لابن القيم) .
٣٧ - الأذكار (للنووى) .
٣٨ - الجواب الكافى (لابن قيم الجوزية) .
٣٩ - صيد الخاطر (لابن الجوزى) .
٤٠ - غاية الحكيم (لمسلمة بن أحمد) .
٤١ - مكاشفة القلوب (للغزالى) .
٤٢ - مفتاح السعادة (لابن القيم) .
٤٣ - الطب النبوى (لابن القيم) .
٤٤ - خزانة الأدب (للبغدادى) .
٤٥ - من وصايا القرآن (دار التراث العربى) .
٤٦ - تفسير الأحلام (لابن سيرين) .
٤٧ - تفسير الأحلام (للنابلسى) .
٤٨ - فى رحمة الله (للمؤلف) .
٤٩ - حديقة الأولياء (للمؤلف) .
٥٠ - لآلئ ودرر من عدالة عمر (للمؤلف) .
٥١ - لؤلؤ ومرجان (للمؤلف) .
٥٢ - من خشية الله (للمؤلف) .
٥٣ - السعى إلى الآخرة (للمؤلف) .
٥٤ - أسماء الله الحسنى (للمؤلف) .
٥٥ - رمضان كريم (للمؤلف) .

فهـــرس

